القُدوةُ وأثَرُها في الفَرْدِ والمُجتَمَعِ

إعدادُ

عَبدِ الرَّحمنِ الطُّوخيِّ عَبدِ الرَّحْمن عَقْل

يقول الدكتور "محمد أمين المصري" – رحمه الله –:

"وليس للمُسلمين من سبيلٍ إلاَّ هذا السبيل، طليعة تتأسَّى خُطواتِ محمد – صلَّى الله عليه وسلَّم – وأصحابه شِبرًا بشِبر، وذِراعًا بذراع في كل ظاهرة وخفية، وفي كلِّ دقيقة وجليلة، في العبادة والتفكير، والحرْب والتدبير، والسياسة والدعوة، والجُرأة والحكمة؛ {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ} [الأنعام: 153]، ولا يَصلُح آخِرُ هذه الأمَّة إلَّا بما صلَح به أوَّلُها.[1]

[1] "المسؤولية"، تأليف د. محمد أمين المصري، ص37.

لمن هذا الكتاب

لكل مربٍ ينشد التربية الصحيحة ويأمل في بناء جيل مسلم

لكل معلم تهفو نفسه إلى رؤية جيل ملتزم إيمانيا

لكل أب وأم يأملان أن يريا أبنائهما قرة عين لهما

لكل صاحب وصديق يحب أن يرى صديقة قدوة يُقتدى ، ومثالا يُحتذى

القُدوةُ وأثرُها في الفرْد والمجتمَع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله، تفرَّد بالربوبية والأُلوهية كمالًا، واختصَّ بالأسماء الحسنى والصفاتِ العُلا جلالًا، أحمده - تعالى - وأشكرُه على سوابغِ نعمه إفضالًا، وجزيل عَطائه نوالًا، وأسأله المزيدَ مِن فضله دعاءً وابتهالًا، وأشهد أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وَحْدَه لا شريكَ له، أمَر بالتمسُّكِ بالإسلام وسطيةً واعتدالًا، وأشهدُ أنَّ نبينا مُحمدًا عبدُ الله ورسولُه، المبعوث بأوسط شريعة وأكمَلها خِلالًا، صلى الله عليه وعلى آله وصحْبه أكرِمْ بهم صحبًا وأنعِم بهم آلًا، والتابعين ومَن تبعهم بإحسانٍ وسلِّم تَسليمًا تَترَى غُدوًّا وآصالًا.

أمَّا بعد:

فإنَّ الدعوةَ إلى الله - عزَّ وجلَّ - مِن أعظمِ الوظائف، وأجلِّ الأعمال التي يَنبغي على الإنسان أن يعمَلها، ولهذه الدعوة ثِمارٌ تُؤتي أُكلَها، إذا جعلها الداعي محورَ حياته، وموضعَ اهتمامه، فلا يُقدَّم ولا يُؤخَّر عليها شيءٌ، والناس أحوج ما يكونون إلى الدُّعاة وإلى الدعوة؛ لأنَّ الداعي إذا أخْلَص النيةَ في دعوته، أصلَح الله بدعوته الفِئامَ من الناس، وعمَّ الخير بسبب دعوتِه بين المسلمين، وامتنعتِ الفواحشُ والرَّذائل، وعلِم كلُّ مسلم ما عليه مِن حقٍّ لِلمُجتمع، فقام بأدائِه، والواجبَ المنوطَ به، فأفْرغ وقتَه وجهدَه للقيام به.

ومِن أهمِّ طرائق الدعوة إلى الله، التي يكون مردودُها أوقعَ وأقوى في النفوس "القدوة الصالحة"، التي يرَى فيها الناسُ واقعًا مُعاشًا للمبادِئ، والمُثُل والقيم التي يدعو إليها.

والأمَّة اليوم في أمَسِّ الحاجة إلى القدوة ، الذي يَظهر أثره في غيره وفي مجتمعه، فينتفع الناسُ به، ويعملون عملَه، كما قال ربُّنا سبحانه في وصفِ عباد الرحمن: {واجعلنا للمتقين إمامًا} ؛ قال ابن عباس: اجْعَلْنَا أئِمَّةً يَقْتَدِي بِنَا مَنْ

بَعْدَنَا، وقِيل : نَأْتَمُّ بِهِمْ, وَيَأْتَمُّ بِنَا مَنْ بَعْدَنَا، وقال مجاهد : أَئِمَّةً نَقْتَدِي بِمَنْ قَبْلَنَا, وَنَكُونُ أَئِمَّةً لِمَنْ بَعْدَنَا1.

أرأيتم إخوتاه ؛ إذ بصلاحِ القدوة يُبنى الجيل، ويهتدي الناس إلى الطريق ، وتتَّضِح لهم معالمه.

ورأس الأمر في القُدوة والأسوة أنْ يدعوَ الناسَ بأفعاله مع أقواله؛ حتى ينتفعَ الناس بوعظه، ومِن أسباب الانتفاع بمواعظ الحسن البصري ومجالسه: أنَّه رحمه الله كان قدوةً صالحة، ولم يكُن رحمه الله ممَّن يقولون ما لا يفعلون.

ذكَر الذهبيُّ في تاريخه عن خالد بن صفوان قال: لقيتُ مَسلَمة بن عبد الملك، فقال: أخبِرْني عن حسَن أهل البصرة، قلت: أصلَح الله الأمير، أُخبِرك عنه بعلم، أنا جارُه إلى جنبه، وجليسُه في مجلسه، أشْبَهُ الناس سريرةً بعلانية، وأشبه قولًا بفعل، إنْ قعد على أمر قام به، وإن قام على أمر قعد به، وإنْ أمر بأمر كان أعملَ الناس به، وإنْ نهى عن شيء كان أتركَ الناس له، رأيته مستغنيًا عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه، قال: حسبُك يا خالد، كيف يَضلُّ قوم هذا فيهم؟!2.

ولَّما نبذ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خاتمَه، وقال: ((إني اتخذتُ خاتمًا من ذهب)) فنبذه وقال: ((إنِّي لن ألبسه أبدًا))، فنَبذَ الناسُ خواتمهم3.

قال ابنُ بطال – رحمه الله –: "لأَنَّهُ خَلَعَ خَاتَمه فَخَلَعُوا خَوَاتِمهمْ، وَنَزَعَ نَعْله فِي الصَّلاة فَنَزَعُوا، وَلَمَّا أَمَرَهُمْ عَام الْحُدَيْبِيَة بِالتَّحَلُّلِ وَتَأَخَّرُوا عَنْ الْمُبَادَرَة رَجَاء أَنْ يَأْذَن لَهُمْ فِي الْقِتَال وَأَنْ يُنْصَرُوا فَيُكْمِلُوا عُمْرَتهمْ، قَالَتْ لَهُ أُمّ سَلَمَة: اُخْرُجْ إِلَيْهِمْ وَاحْلِقْ وَاذْبَحْ فَفَعَلَ فَتَابَعُوهُ مُسْرِعِينَ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْفِعْل أَبْلَغ مِنْ الْقَوْل" 4

فالقدوةُ هو الذي يطابق قولُه فعلَه، وحالُه مقالَه؛ ذلك لأنَّ الدعوة إلى الله – تعالى – تَحتاج إلى أناسٍ صادقين، كما قال تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ

---

[1] – تفسير الطبري 532/17

[2] – تاريخ الإسلام للذهبي 25/3.

[3] – فتح الباري 275/13.

4 – انظر فتح الباري389/13.

صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب: 23].

وتحتاج إلى رجالٍ يقولون ويفعلون، وقد ذمَّ الله – تعالى – مَن يقول ولا يفعل؛ حيث قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ} [الصف: 2 – 3].

وقد أمَر الله نبيَّه بالا قتداء بالأنبياء والمرسَلين قبله؛ لأنَّهم كانوا صادقين مع الله ومع الناس، وثبَتوا حتى النهاية؛ قال تعالى عنهم: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ} [الأنعام: 83 – 90].

والقدوة لا يكون قدوةً به يُقتدى، ولا مِثالًا يُحتذى ، إلا إذا صبَر وصابر، ونافَح ورابط، ووطَّن نفسه على تحمُّل البلاء ؛ فهذا خليل الرحمن ابْتُلِيَ بِتَرْكِ هَاجَرَ وَوَلَدِهِ الَّذِي جَاءَهُ عَلَى كِبَرٍ فِي أَرْضٍ قَفْرٍ، لَا مَاءَ فِيهَا وَلَا شَجَرَ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ لِصِيَاحِ الطِّفْلِ وَاسْتِجْدَاءَاتِ أُمِّهِ؛ لِأَنَّ أَمْرَ اللهِ تَعَالَى فِي قَلْبِهِ أَعْظَمُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ، حَتَّ أَخْبَرَهَا بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى فَرَضِيَتْ لِإِيمَانِهَا وَيَقِينِهَا، ثُمَّ ابْتُلِيَ بِذَبْحِ وَلَدِهِ وَهُوَ صَبِيٌّ، فَهَمَّ بِذَبْحِهِ وَأَعَانَهُ الْوَلَدُ عَلَى أَمْرِ اللهِ تَعَالَى، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْبَلَاءِ وَأَشَدِّهُ عَلَى النُّفُوسِ، ثُمَّ ابْتُلِيَ بِبِنَاءِ الْبَيْتِ فَرَحَلَ مِنَ الشَّامِ إِلَى مَكَّةَ لِبِنَائِهِ، فَبَنَاهُ، وَأَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ.

ابْتِلَاءَاتٌ فِي إِثْرِ ابْتِلَاءَاتٍ، يُجَاوِزُهَا الْخَلِيلُ بِثَبَاتٍ وَيَقِينٍ، وَشَرَائِعُ تَتْلُو شَرَائِعَ يَعْمَلُ بِهَا وَيُبَلِّغُهَا، فَأَخَذَ الدِّينَ بِعَزْمٍ وَحَزْمٍ وَقُوَّةٍ، حَتَّى زَكَّاهُ اللهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ قَدْ

أَدَّى مَا حُمِّلَ، وَوَفَّى بِمَا وَعَدَ؛ {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} [النَّجم:37]، {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ} [البقرة:131] {وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الصَّفات:83-84].

فَاسْتَحَقَّ بِذَلِكَ الْإِمَامَةَ فِي الدِّينِ، وَأَنْ تَكُونَ الْإِمَامَةُ فِي وَلَدِهِ مِنْ بَعْدِهِ، وَبَرَكَةُ الْأَبِ الصَّالِحِ تَنَالُ ذُرِّيَّتَهُ؛ {قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} [البقرة:124]

واللهُ – عزَّ وجلَّ – جعَل القدوة والأسوة في نبيِّه ونجيِّه ، وخليله، محمَّد صلى الله عليه وسلم، وأعلم عبادِه هذا كلهم، ورغَّب الذين يرْجُون اللهَ والدارَ الآخِرة – خاصَّةً – في الْتماسِ القُدوة فيه.

وقال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: 21].

فهو قُدوتنا في كل شيء، مَن تمسك بغرْزه نَجا، ومَن تركه هلَك.

وأرشَدنا الرسول ــصلى الله عليه وسلمــ إلى نماذج مِن القُدوة الصالحة في الدِّين، مِن الصحابة والتابعين؛ لنتبَع نهجهم ونستنَّ بسُنَّتهم، كما في حديث: ((عليكم بسُنَّتي وسنَّة الخُلفاء الراشِدين المهديِّين، عضُّوا عليها بالنواجذ)) [1]، فوصَفهم الرسول ــصلى الله عليه وسلمــ بالراشِدين المَهديِّين إبرازًا لأساس القُدوة فيهم، وهو أنهم أفضل الناس رشدًا وهُدى في الدِّين، ولذلك حثَّ على الاقتداء بهم.

وأخرج الترمذي عَن حُذَيْفَة قَالَ: كُنّا جُلُوسًا عِنْدَ النّبيّ ــصلى الله عليه وسلمــ فَقَالَ: ((إنّي لاَ أدْرِي مَا قَدْرُ بَقَائِي فِيكُمْ فَاقْتَدُوا باللّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي – وَأَشارَ إِلى أبي بكْرٍ وَعُمَرَ – وَاهْتَدُوا بِهَدْيِ عَمّارٍ. وَمَا حَدّثَكُم ابنُ مَسْعُودٍ فَصَدِّقُــوهُ)).[2]

قال المباركفوري في شرْح الحديث: "قوله: (اقْتَدُوا باللّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي)؛ أي بالخليفتَين اللذَين يقومان مِن بعدي (أبي بكر وعمر)؛ أي: لحُسن سيرتهما،

---

[1] – رواه أبو داود 4607 والترمذي 2676 في سننهما وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة 2735 والمشكاة 165

[2] – رواه الترمذي في سننه 3959، وأحمد في مسنده 385/5 و399 و400 ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم 1233

وصـــدْق سَريرتِهما، (وَاهْتَدُوا بِهَدْيِ عَمّارٍ)؛ أي ابن ياسر. والهَدي – بفتح الهاء وسكون الدال– السيرة والطريقة، والمعنى أي: سيروا سيرته، واختاروا طريقته، وكأن الاقتداء أعمُّ مِن الاهتداء؛ حيث يتعلق به القول والفعل، بخلاف الاهتداء فإنه يَختصُّ بالفعل) 1.

قال المناويُّ: «وسبب الحثِّ على الاقتداء بالسابقين الأولين ما فُـــطروا عليه مِن الأخلاق المرْضية؛ فلذلك كانوا أفضل الناس بعد الأنبياء» 2.

وأويس القرَني كان من أبرِّ الناس بأمِّه، وهو سيد التابعين بشهادة النبي الكريم،وقد أرشد النبيُّ صلى الله عليه وسلم عُمرَ إنْ لقيَه أن يَستغفِر له، لماذا ؟ لأنه رجل صالح .

فهو قُدوة في برِّ الوالدَين، والقيام على شؤونهما، ورعاية مصالحهما .

فالمسلم الصادق في إسلامه، الكامل في إيمانه يَلزم غرز الأوائل مِن سادات هذه الأمَّة، ويعمل مثل عملهم فيَفوز ويَهنأ .

وكَثِيرٌ هُمْ أُولئِكَ الَّذِينَ تَهَيَّأَتْ لَهُمْ فُرَصُ الْإِمَامَةِ فِي الدِّينِ مِنْ دُوَلٍ وَجَمَاعَاتٍ وَأَفْرَادٍ، وَكَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَكُونُوا أَئِمَّةَ دِينٍ، وَدُعَاةَ هُدًى، وقُدوة حسنة، فَيُمَكِّنَ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ فِي الْأَرْضِ، لَكِنَّهُمُ افْتَقَدُوا الصَّبْرَ وَالْيَقِينَ عِنْدَ ابْتِلَاءَاتِ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، فَمِنْهُمْ مَنْ فُتِنَ بِالدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ جَزِعَ مِنَ الْبَلَاءِ، فَارْتَدُّوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَانْقَلَبُوا عَلَى مَنَاهِجِهِمْ، وَغَيَّرُوا دَعْوَتَهُمْ، وَلَا إِمَامَةَ وَلَا تَمْكِينَ إِلَّا بِصَبْرٍ وَيَقِينٍ، كَمَا كَانَ حَالُ الْأَئِمَّةِ الْمُتَقَدِّمِينَ .

قال ابن القيم رحمه الهٍ تعالى:« فإنَّ الداعي إلى الله تعالى لا يتمُّ له أمره إلا بيقينه للحقِّ الذي يَدعو إليه، وبصيرته به، وصبره على تنفيذ الدعوة إلى الله باحتمال مشاقِّ الدعوة وكفِّ النفس عما يُوهِن عزْمه ويُضعف إرادته، فمَن كان بهذه المثابة كان مِن الأئمة الذين يَهدون بأمْره تعالى »3.

فلا بد مِن القُدوة في البيت، وفي الطريق، وفي العمل، وفي جميع شؤون الحياة، حتى تؤتي الدعوةُ أُكلَها، وتَينَع ثمارُها، فالكلام إذا خرج مِن القلب، دخل في القلب، وإذا خرَج مِن اللسان لم يَتجاوز الآذان، فيجب على كل مسلم يؤمن

---

[1] –تحفة الأحوذي 102/10 ،204

[2] – فيض القدير 56/2

[3] – إعلام الموقعين 103/4

بالله واليوم الآخر، ويرجو ثوابَ الله ويَخاف عِقابه – أن يكون قُدوةً في أقواله وأفعاله، وجميع مجالات حياته، وأن يكون قُدوةً حسَنة لغيره.

وانظر إلى حال أحَد السلف – وقد ذكَر خبره الذهبي – ترَ عجبًا، إنه عبد الرحمن بن أبان بن عُثمان بن عفَّان القرشي، الأموي، أحد من يصلح للخلافة. قال موسى التيمي: ما رأيتُ أحَدًا أجمع للدِّين والمملكة والشرَف منه.

وقيل: كان يَشتري أهلَ البيت، فيكسوهم، ويُعتقهم، ويقول: أستعين بهم على غمرات الموت، فمات وهو نائم في مسجده، وقيل: كان كثير العبادة، والتأُّله، رآه علي بن عبد الله بن عباس، فأعجبه نُسكه وهَديه، فاقتدى به في الخير1، فلما رآه أخوه الصالِح متنسِّكًا وعابدًا، استحقَّ أن يكون له قُدوة.

فلزومُ تقوى الله – عزَّ وجلَّ – والاقتداء برسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – سَمْت القُدوات، يُحافظون على الواجبات والمستحبَّات، ويتركون المحرَّمات والمكروهات، فيفوزون بالأجْر المرتَّب على ذلك، ويَسْلَمون مِن الإثْم المرتَّب على ضدِّه.

لا شكَّ أنَّ معرفة سيرة السَّلف الصالح وتراجُم العلماء أمْر حسَنٌ مندوب إليه – وخاصَّة الحِقبة الأولى مِن القرون المفضَّلة الذين كانوا مثالًا عاليًا في كل الصفات – وفي معرفة تراجمهم دافع للمسلم للاقتداء بهم، والتأسِّي بأفعالهم، وأخلاقهم، ومآثرهم , وخاصَّة في مثل هذا الوقت الذي أصبحتْ فيه القُدوة، والأُسوة، للساقِط مِن الناس، مِن الممثِّلين، والمغنِّيين، وأشباهِهم.

إليها أيُّها الإخوة، القول فيها صِنو العمل، وتنشئة الصغار عليها، وتربية الجيل الصاعِد؛ حتى يكون قُدوةً يَنفع المجتمع، وينتفع المجتمع بهم، في زمان قلَّ فيه القُدوة، وأصبح اللاعب، والفنان، ومُصمِّمة الأزياء هم القُدوات.

ووجود القُدوة الحسَنة دعْم لانتشار الخير؛ لأنَّ الناس بفطرتهم يُحبون محاسِنَ الأخلاق، ودرجات الكمال، وتعطيهم أملًا في الوصول للفضائل؛ ولذا كان مِن رحمة الله أن يوجد في الناس على مَرِّ العصور – حتى في أوقات ضعف

---

[1] "السير"، للذهبي، 10/5 – 11.

الأمة – نَماذج تبقى صامدة مُجاهدة تتمثل الإسلام في أقوالها وأعمالها واعتقاداتِها، ولكن قد يقلُّ العدد أو يكثر بحسب قوة الأمة، ولكن لا تَخلو الأرض مِن قائم لله بحجَّة، وكثيرة هي القصص عن اهتداء كثير من الناس بمجرَّد رؤية صلاة خاشعة، أو تصرُّف لَبِقٍ في موقف صعب، وهذا كله بدون أن يَشعر المقتدَى به.

وإذا خالف عمل القُدوة قولَه ترتَّب على ذلك وعيد شديد، وفي صورة مثيرة ورهيبة ومخيفة يُبيِّن فيها النبي – صلى الله عليه وسلم – حال مَن خالَف عمله قوله، يقول – عليه الصلاة والسلام –: (يُؤْتَى بالرَّجُلِ يَوْمَ القيَامَةِ فَيُلْقَى في النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أقْتَابُ بَطْنِهِ فَيدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ في الرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إلَيْه أهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلانُ، مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُ تَأمُرُ بالمعْرُوفِ وَتنهَى عَنِ المُنْكَرِ؟ فَيقُولُ: بَلَى، كُنْتُ آمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَلا آتِيهِ، وأنْهَى عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ). [1]

هذه حال مَن دعا إلى الله وأمَر بالمعروف ونهى عن المُنكَر، ثمَّ خالَف قوله فعله وفعله قوله، نعوذ بالله مِن ذلك، فمِن أهمِّ الأخلاق ومِن أعظمها في حق الداعية أن يعمل بما يدعو إليه، وأن ينتهي عما يَنهى عنه، وأن يكون ذا خلُق فاضِل، وسيرة حميدة، وصبر ومُصابَرة وإخلاص في دعوته.

"يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلِّمُ غَيْرَهُ = هَلاَّ لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمُ

تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي الضَّنَى = كَيْمَا يَصِحُّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمُ

وَنَرَاكَ تُصْلِحُ بِالرَّشَادِ عُقُولَنَا = أَبَدًا وَأَنْتَ مِنَ الرَّشَادِ عَدِيمُ

ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا = فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ

فَهُنَاكَ يُقْبَلُ مَا تَقُولُ وَيَهْتَدِي = بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ

لاَ تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ = عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ"[2].

---

[1] – متفق عليه

[2] "القدوة وأثرها في بناء الجيل"، تأليف علي بن نايف الشحود، ص2، وهذه الأبيات مختلف في نسبتها؛ فهي تنسب لأبي الأسود الدؤلي، وتنسب للمتوكل الليثي ، وتنسب إلى سابق البربري ، وتنسب إلى أبي بكر العزرمي، وانظر جمهرة الأمثال للعسكري 38/2 ، ,وحلية المحاضرة 305/1 .

ومَن لم يجعل قوله صِنو عمله، فلا لغيره نفَع، ولا لنفسه رفعَ الأذيَّة ومقْت الله – تعالى – له، ويصدق عليه قول الشاعر:

كَالْعِيسِ فِي الْبَيْدَاءِ يَقْتُلُهَا الظَّمَا = وَالْمَاءُ فَوْقَ ظُهُورِهَا مَحْمُولُ

وقول الآخر:

كَحَامِلِ لِثِيَابِ النَّاسِ يَغْسِلُهَا = وَثَوْبُهُ غَارِقٌ فِي الرِّجْسِ وَالنَّجِسِ

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا = إِنَّ السَّفِينَةَ لاَ تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ

رُكُوبُكَ النَّعْشَ يُنْسِيكَ الرُّكُوبَ عَلَى = مَا كُنْتَ تَرْكَبُ مِنْ بَغْلٍ وَمِنْ فَرَسِ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ مَالٌ وَلاَ وَلَدٌ = وَضَمَّةُ الْقَبْرِ تُنْسِي لَيْلَةَ الْعُرُسِ

وانظر – أخي الكريم – بعين الاعتبار والتفكُّر إلى القُدوة السيئة وأثرها في هلاك المجتمعات؛ قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ} [هود: 96 – 99].

نسأل الله أن ينجينا مِن كل كرْب وبلاء، وأن لا يجعلنا فتنةً، وأن ينفع بنا، ويتجاوَز عن تَقصيرنا؛ إنه ولي ذلك ومولاه.

وأخيراً : قد يرى القارئُ الكريمُ في بحثي هذا أنيَّ اختصرتُ في بعض المباحث ، وأسهبتُ وتوسعتُ في بعضْها بنوعٍ من البسط ، حتى تصل الفكرةُ للقارئ .

وبعد هذه المقدمة أحببت أن أضع بَحثي في هذا الموضوع المُهمِّ، والذي يأتي في مقدمة وفصول ومباحث وخاتمة مُقسَّمًا كالتالي:

الفصل الأول: مقصود القُدوة ومعناها.

المبحث الأول: معنى القُدوة لغة واصطلاحًا.

المبحث الثاني: أهمية القُدوة والاقتداء.

المبحث الثالث: أنواع القُدوة والأسوة.

المبحث الرابع : ميادين القُدوة.

المبحث الخامس :أهمية القُدوة في أوساط النساء.

الفصل الثاني: القُدوة مبادئ وأُصول.

المبحث الأول: أُصول القُدوة.

المبحث الثاني: القُدوة قبل الدَّعوة.

المبحث الثالث: الأساليب التي يَنبغي أن تَكون في القُدوة.

المبحث الرابع: القُدوة الحاضِرة الغائِبة.

المبحث الخامس: مسؤولية القُدوة وحماية مكانته تجاه الفرد والمجتمع.

الفصل الثالث: دور الأسرة في تكوين القُدوة (الأمْن الأسري).

المبحث الأول: صورة القُدوة في عيون أطفالنا (أبطال الكرتون).

المبحث الثاني: أطفالنا بين غياب القُدوة وتفريط الراعي.

المبحث الثالث: أين أثرُك أيها الملتزم القُدوة.

المبحث الرابع: دور المترل في تربية الطفل المسلم (القُدوة).

الفصل الرابع: القُدوة والتعليم.

المبحث الأول: المُعلِّم والأمانة العُظمى.

المبحث الثاني: دور المدارس في تنشئة القُدوة الصالحة.

المبحث الثالث: سمات مُعلِّم التربية الإسلامية ودروه في تنشئة الصغار.

المبحث الرابع: دور المسجد وإمامه في تربية القُدوة.

المبحث الخامس: كيف يكون الإنسان قُدوة.

خاتمة.

الفصْل الأوَّل

مقصود القُدوة ومعناها

المبحث الأول – معنى القُدوة في اللغة والاصطلاح:

معنى القُدوة في اللغة: القُدوة: هي الاسم مِن الاقتداء، وكلاهما مأخوذ مِن مادَّة (ق د و)، التي تدلُّ على اقتِباسٍ بالشيءِ واهتداءٍ.

والقَدْوُ أَصلُ البناء الذي يَتَشَعَّبُ منه تصريفُ الاقتداء؛ يقال: قِدْوةٌ وقُدْوةٌ لما يُقْتَدى به.

وقال ابن سِيده: القُدْوة والقِدْوة ما تَسَنَّنْتَ به، قلبت الواو فيه ياءً؛ للكسرة القريبة منه وضَعْف الحاجز.[1]

قال الجوهريُّ: القِدوة بالكسر: الإسوة، يقال: فلان قِدوة يُقتدى به، وقد يُضمُّ، فيقال: لي بك قُدوة وقُدوة وقدة[2].

والقدو: أصل البناء الذي يتشعَّب منه تصريف الاقتداء، يقال: قُدوة لمن يُقتدى به.

قال ابن الأعرابي: القُدوة التقدُّم، يقال: فلان لا يقاديه أحد، ولا يُماديه أحد، ولا يُباريه أحد، ولا يُجاريه أحد، وذلك إذا برَز في الخِلال كلِّها.[3]

وأمَّا معناها الاصطلاحي: الأسوة والقُدوة بمعنى واحد، ويُقصَد بها السير والاتباع على طريق المُقتدَى به.[4]

المبحث الثاني – أهمية القُدوة والاقتداء:

قال الإمام ابن القيم – رَحِمَه اللهُ – مُبيِّنًا أهميَّة القُدوة: "علماء السوء جلسوا على باب الجنَّة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم؛ فكُلما قالتْ أقوالهم للناس: هلمُّوا...قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم

---

[1] "لسان العرب"، 171/15 مادة (قدا)، "المخصص"، لابن سيده، 379/3.

[2] "مختار الصحاح"، 2459/6.

[3] "تهذيب اللغة"، 191/9.

[4] "القدوة: مبادئ ونماذج"، للشيخ صالح بن عبد الله بن حميد، ص4.

فلو كان ما دعوا إليه حقًّا كانوا أول المُستجيبين له فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قُطَّاع الطرق".[1]

ذلك أنَّ القيمة الخُلقية مهما كانت عالية رفيعة، ومهما بذلت الجهود العلميَّة والفنيَّة في الإقناع بها والدَّعوة إليها، بل والتَّشجيع على التمسُّك بها يظلُّ ذلك كلُّه مؤكِّدًا أنها قيمة خلُقية نظرية، فإذا ما خرجت إلى حيز الوجود متمثلة في إنسان يتحلى بها، ويكون قُدوة للآخَرين فيها، فإنها عندئذٍ تدخل مجال التطبيق والتنفيذ.

والقُدوة العلمية العملية أقوى وأشد تأثيرًا في نشر المبادئ والأفكار ؛ فالذي يدعو الناس إلى مكارم الأخلاق وأخلاقُه سيئة لن تكون دعوته مستجابة، ولن يلقى إلا الصدَّ والإعراض، ولا يمكن أن يكون لكلام الداعية أثر مُعتبر إلا إذا كان لهذا الكلام ما يطلقه من فعل الداعية وسلوكه.

إنَّ من الوسائل المهمة جدًّا في تبليغ الدعوة إلى الله، وجذب الناس إلى الإسلام، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه – القُدوة الطيبة للداعي وأفعاله الحميدة، وصفاته العالية، وأخلاقه الذَّاكية؛ مِمَّا يَجعله أسوة حسنة لغيره، يكون بها نموذجًا يقرأ فيه الناس معاني الإسلام، فيُقبِلون عليها ويَنجذِبون إليها؛ لأن التأثُّر بالأفعال والسلوك أبلغ وأكثر من التأثر بالكلام وَحْدَه.

إنَّ الإسلام انتشر في كثير مِن البلدان بالقُدوة الطيبة، التي كانت تبهر أنظار غير المسلمين، وتَحملهم على اعتناق الإسلام؛ فالقُدوة الحسنة التي يحققها الداعي بسيرته الطيبة هي في الحقيقة دعوة عملية للإسلام، يستدل بها سليم الفطرة راجح العقل من غير المسلمين على أنَّ الإسلام حق مِن عند الله.

ومن السوابق القديمة في أهمية السيرة الحسنة للداعي وأثرها في تصديقه والإيمان بما يدعو إليه قول الظَّعينة المسافرة حين رأت الرسول ρ لأول مرة: لقد رأيت وجه رجل لا يَغْدِر، ما رأيت شيئًا أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه.

إِنَّ الْقُلُوبَ إِذَا طَوَتْ أَسْرَارَهَا = أَبْدَتْ لَكَ الْأَسْرَارَ فِيهَا الْأَوْجُهُ

[1] – الفوائد ص 61

فالظعينة استدلَّتْ بسَمْت رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – ووجهه المنير الكريم، الذي يكون عليه أهلُ الصدق والأخلاق الكريمة.

وتكمُن أهمية القُدوة الحسنة في الأمور الآتية:

1 – المثال الحي المُرتقِي في درجات الكمال، يُثير في نفس البصير العاقل قدرًا كبيرًا مِن الاستحسان والإعجاب والتقرير والمحبَّة، ومع هذه الأمور تتهيج دوافع الغَيْرة المحمودة والمنافسة الشريفة، فإن كان عنده ميل إلى الخير، وتطلُّع إلى مراتب الكمال، وليس في نفسه عقَبات تصدُّه عن ذلك، أخذ يُحاول تقليد ما استحسنه وأُعجب به، بما تولد لديه من حوافز قوية تحفِّزه لأَنْ يعمل مثله، حتى يَحتلَّ درجة الكمال التي رآها في المقتدى به.

2 – القُدوة الحسنة المتحلِّية بالفضائل العالية تعطي الآخرين قناعةً بأنَّ بلوغ هذه الفضائل من الأمور الممكنة، التي هي في متناول القدرات الإِنسانية، وشاهد الحال أقوى من شاهد المقال.

3 – مستويات فهم الكلام عند الناس تتفاوت، ولكنَّ الجميعَ يتساوى أمام الرؤية بالعين المجردة لمثال حي، فإن ذلك أيسر في إيصال المعاني التي يريد الداعية إيصالها للمقتدي .

4 – الأتباع يَنظرون إلى الداعية نظرةً دقيقة فاحصة دون أن يعلم، فربَّ عمل يقوم به لا يُلقي له بالًا يكون في حسابهم من الكبائر؛ وذلك أنَّهم يَعدُّونه قُدوةً لهم، ولكي ندرك خطورة ذلك الأمر، فلنتأمل هذه القصة: يُروى أن أبا جعفر الأنباري صاحب الإمام أحمد عندما أُخبر بحمل الإمام أحمد للمأمون في الأيام الأولى للفتنة، عَبَر الفرات إليه، فإذا هو جالس في الخان، فسلم عليه، وقال: يا هذا،

أنت اليوم رأسٌ، والناس يقتدون بك، فوالله، لئن أجبتَ إلى خلق القرآن لَيُجيبنَّ بإجابتك خلق من خلق الله، وإن أنت لم تُجبْ، ليمتنعنَّ خلق من الناس كثير، ومع هذا فإنَّ الرجل – يعني المأمون – إن لم يَقتلْك فأنت تَموت،

ولا بد من الموت فاتقِ الله ولا تجْبُهم إلى شيء، فجعل أحمد يبكي ويقول: ما قلت؟ فأعاد عليه فجعل يقول: ما شاء الله، ما شاء الله ا. هـ[1]

وتمر الأيام عصيبة على الإمام أحمد، ويُمتحَن فيها أشدَّ الامتحان، و لم ينسَ نصيحة الأنباري، فها هو المرْوَزي أحد أصحابه يدخل عليه أيام المحنة، ويقول له: "يا أستاذ، قال الله – تعالى –: { وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} [النساء: 29]، فقال أحمد: يا مروزي اخرج، فانظر أي شيء ترى، قال: فخرجتُ إلى رحبة دار الخليفة، فرأيت خلقًا من الناس لا يُحصِي عددَهم إلا الله والصحف في أيديهم والأقلام والمحابر في أذرعتهم، فقال لهم المروزي: أي شيء تعملون؟ فقالوا: ننظر ما يقول أحمد فنكتبه، قال المروزي: مكانكم، فدخل إلى أحمد بن حنبل، فقال له: رأيت قومًا بأيديهم الصحف والأقلام ينتظرون ما تقول فيكتبونه، فقال: يا مروزيُّ، أُضلُّ هؤلاء كلهم؟ أقتل نفسي ولا أُضلُّ هؤلاء"[2].

"فمِن أبرز أسباب أهمية القُدوة أنَّها تساعد على تكوين الحافز في المتربي دونما توجيه خارجي، وهذا مِنْ ثَمَّ يساعد المتربي على أن يكون من المستويات الجيدة في المسالك الفاضلة من حسن السيرة، والصبر، والتحمُّل، وغير ذلك".[3]

المبحث الثالث: أنواع القُدوة والأسوة:

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: ـــ رحمه الله ـــ "فالأسوة نوعان: أسوة حسنة، وأسوة سيئة؛ فالأسوة الحسنة، في الرسول – صلى الله عليه وسلم –، فإن المتأسِّي به سالك الطريق الموصل إلى كرامة الله، وهو الصراط المستقيم.

---

[1] "سير أعلام النبلاء"، 239/11.

[2] "سير أعلام النبلاء"، للذهبي، 11 / 253 – 254.

[3] "القدوة مبادئ ونماذج"، ص 8.

وأما الأسوة بغيره إذا خالفه فهو الأسوة السيئة، كقول الكفار حين دعتهم الرسل للتأسِّي بهم: (بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ) [الزخرف: 22]".[1]

وأخرج عبد بن حميد بسند صحيح عن قتادة في قوله -تعالى-: (وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) [الفرقان: 74]، أي: "قادة في الخير، ودعاة هدى يؤتم بنا في الخير".

فالقُدوة الحسنة: هو الذي التزم طريق الله، واتبع هَدْيَ رسولِ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - واقتدى بأهل الفضل والخير والصلاح، فمشى في ركابهم، وورد حياضَ مائهم، ونهل من معين أدبهم، فصعد بهمته إلى أعلى الأمور، وتتره عن سفاسفها، وقدوتُه رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - فبه يستن، وبهديِ يقتدي؛ لأنه يعلم قوله - تعالى -: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: 21].

قال الشيخ صالح بن حميد - حفظه الله -: "ومِن دقيق المعنى في هذه الآية الكريمة أنَّ الله - سبحانه - جعل الأسوة في رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - ولم يحصره في وصف خاص من أوصافه، أو خلق مِن أخلاقه، أو عمل من أعماله الكريمة، وما ذلك إلاَّ من أجل أن يشمل الاقتداء أقواله - عليه الصلاة والسلام - وأفعاله وسيرته كلها، فيُقتدى به - صلَّى الله عليه وسلَّم - بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ويُقتدى بأفعاله وسلوكه من الصبر، والشجاعة، والثبات، والأدب، وسائر أخلاقه، كما يشمل الاقتداء بأنواع درجات الاقتداء من الواجب، والمستحب، وغير ذلك مما هو محلُّ الاقتداء"[2].

وقضية القُدوة والاقتداء من المسائل المهمَّة في بناء الأمم والأجيال؛ تنقل التجارب والعلوم والأخلاق، ويتصل اللاحق بالسابق بهذه القُدوة.

والأمثلةٌ كثيرةٌ على الأخيار الذين اقتدَوا بالصالحين، ففازوا وسعِدوا سعادةً عظيمةً، وعلى سبيل المثال:

---

[1] - تفسير السعدي 660/1

[2] "القدوة مبادئ ونماذج"، ص4.

1- آسيةُ امرأةُ فرعونَ لما آمنتْ بموسى، واقتدتْ به في الصلاحِ والاستقامةِ، ولم تبالِ ببطشِ فرعون وكيدِه، كيف كان حالُها؟ جعلَها رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - مِن النساء الكُمَّل، وفي بعض الآثار أنَّها إحدى زوجاته في الجنة، وقد بُشرت بسُكنى الجنة، فتقتدي الصالحات بها في صبرها على ما لاقتْه مِن أذى على يد فرعون، وما قصة ماشِطة ابنة فرعون إلا دليلٌ على ذلك، فالاقتداء بهن في الصبر على البلاء.

2- إبراهيم - خليل الرحمن - عليه الصلاة والسلام - يتبرَّأ من المشركين؛ {إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [الممتحنة: 4]، ويَجعل أصنامهم جُذاذًا؛ {إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ} [الأنبياء: 58]، فتنادى الملأ: { حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ} [الأنبياء: 68]، أجْمَعوا رأْيَهم، وشرعوا في الحطَب يَجمعون، تَحرِصُ المرأة منهم وتنذر إذا عُوفِيَت، لتحمِلنَّ حطبًا لحريق إبراهيم، وكذلك يفعلون.

بنَوا له بنيانًا ملؤُوه بالحطب، وتدَاعَوا يُضرِمون النار ويُؤجِّجون، ويعلو لها شررٌ لم يُرَ مثلُه وهم فرِحون، ووُضِع الخليل في المنجنيق؛ ليُرمَى إلى مكان سحيق، فرفَع رأسه لوليِّه ومولاه، وقال: "حسبي الله ونعم الوكيل" عرض له جبريل، فقال: يا إبراهيم، ألَك حاجة؟ قال: "أمَّا إليك فلا، أمَّا إلى الله فنعَم، حسبي الله ونعم الوكيل"، لما كان حاله كذلك صار ذكره مضرب المثل، وصار بين العالمين قُدوة، واستحق أن يكون أمة في الخير؛ {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً} [النحل: 120]، فأمرنا بالاقتداء به في التسليم لأمر الملك القدير؛ {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ أَقْتَدِهْ} [الأنعام: 90].

3- إسماعيل - عليه الصلاة والسلام - لَمَّا استجاب لأمر أبيه، واقتدى بفعله ولم يعصِ له أمرًا، فُدِيَ بكبشٍ أقرنَ أعيَنَ، قد رعَى في الجنة، ورَتَعَ فيها أربعين عامًا، هَبَطَ من ثَبيرٍ له ثُغاء، فذبحه إبراهيم، كذا يقول ابن عباس، ولما اقتدى بأبيه، وساعد أباه برفع قواعد البيت الحرام، جعل الله ذكره يُتلى في المحاريب إلى يوم القيامة، فأنعم بهذا النبي المبارك، الذي خلد

ذكره، فكان صادق الوعد ورسولًا نبيًّا، فالاقتداء به ببرِّه بأبيه وطاعته واستجابته له بغير تردُّد.

القُدوة السيئة: المنبوذ خُلقًا، البعيد عن الناس حسًّا ومعنى، مَن سلَك مسلك الذين ظلموا أنفسهم، واتَّبع هوى نفسه، وعصى أمر رَبِّه، سلك الطريق بغير بينة، واقتدى بغير برهان، فكانت حجته داحِضة؛ قال ربنا – سبحانه – مبينًا حالَ هؤلاء، وكيف يقتدون، وأنَّهم في غَيِّهم يعمهون: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ} [الزخرف: 23].

فعلى سبيل المثال...

1- فرعون كان قُدوة سيئة، استخفَّ قومه فأطاعوه، فقتل الذرية، واستحيا النساء، فقال الله عنه: { إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ} [القصص: 8]، فاجتنب الاقتداء به وبأمثاله في الكبر والظلم.

2- أبو طالب دعاه النبيُّ إلى الإسلام، وحبَّبه إلى الرحمن، ولكنَّه أبى إلا العصيان، فسَبَّب اقتداءَه بأهل الكفر والطغيان، فاستحقَّ مقتَ وغضب الكبير المتعالي، والخلود في النيران، فاحذر أن يكون قدوتك يخشى الناس ولا يخشى ربه.

3- عقبة بن أبي معيط كان لا يؤذي رسولَ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – وكانت قريش تؤذيه، وكان له صاحب هو له كأخيه، أو أقرب فعَلِمَ ذلك، فظن أنَّه أسلم، فقال عقبة: لم أفعلْ، فقال إن كان حالُك كما تقول، فعليك أن تؤذِي محمدًا، وتفعل به كذا وكذا، وبينما هو جالس مع قريش في الحجر إذ رأوا النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – يصلي، فانبعث أشقاهم – عقبة – ووضَع سلا الجزور على ظهْر رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – فلم يرحَمْه الرسول – صلَّى الله عليه وسلَّم – لَمَّا تَمكَّن منه في غزوة بدر؛ فقد وقع أسيرًا ولم يقبل النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – الفداء، وقال: اجعلني كرجل من قومي، إن منتَ عليهم منْتَ عليَّ، وإن قتلتهم قتلتني، فقال النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((قدِّمْه يا عاصم بن ثابت، واضربْ عُنقه))، وفي الآخرة يَعَضُّ أصابع الندم على عدم متابعة النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – والإيمان به، وله أيضًا العذاب الأليم،

والويل الشديد، فاحذر أذيَّة الصالحين، واجتنبْ دعاءهم، واحذرْ أن تسلك مسلكهم، كعقبة بن أبي معيط.

إنَّ أثر القُدوة السيئة خطير؛ فقد يضلُّ مَن يتبع القُدوة الفاسدة ويقلدها، أو تؤدي به إلى التأخُّر أو التخلف عما فيه خيرَي الدنيا والآخرة، وضياع العمر والوقْت..

وقد بكى حكيم بن حزام – رضي الله عنه – يومًا على أنه اتَّبع قدوات كانت سيئة في مجتمعه، وأضاعت عليه خيرًا كبيرًا، وفاتته فرصة عظيمة، وهي شرف الإسلام مع مَن أسلم مبكِّرًا.

ذكَر ابن الجوزيِّ في "صفة الصفوة": "إن حكيم بن حزام بكى يومًا، فقال له ابنه: ما يُبكيك؟ قال: خصال كلها أبكاني، أما أولها: فبطء إسلامي حتى سُـــبقت في مواطن كلها صالحة... وذلك أني أنظر إلى بقايا من قريش لهم أسنان — رجال كبار السن – متمسِّكين بما هم عليه من أمر الجاهلية؛ فأقتدي بهم، ويا ليت أني لم أقتد بهم، فما أهلَكنا إلا الاقتداء بآبائنا وكبرائنا، فلما غزا النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ مكة جعلتُ أفكِّر... فجئته فأسلمتُ — يعني أسلمت متأخرًا — ". [1]

المبحث الرابع – ميادين القُدوة:

ميادين القُدوة: ميادين القُدوة كثيرة يستطيع صاحب القُدوة أن يُبحر فيها، ومنها:

1- العبادة والطاعات المحْضَة، وذلك بالمحافظة على الفرائض والواجبات، والتزوُّد بالإكثار من النوافل والقربات، فذلك ميدان مهمٌّ من ميادين الدعوة بالقُدوة، كما كان التأثير بذلك قويًّا في هدي المصطفى – صلَّى الله عليه وسلَّم – في عبادته وقيامه بحق ربه، ومن ذلك أيضًا أمره لنسائه بقيام الليل حينما رأى تنزُّل الفتن والخزائن على أمته؛ ليقتديَ بهنَّ النساء خاصَّة، والناس عامة في كل زمان – ولا سيَّما زمان كثرة الفتن – ومَن تأمَّل كذلك

[1] –صفة الصفوة 285/1

حال السلف – رحمة الله عليهم – وجد أنَّهم كانوا قُدوة في العبادة والتألُّه والاستقامة، والفرد منهم يُصلح الله به أمة مِن الناس.

2– علاقة القُدوة بالناس وتعامله معهم وكسْبه لحبِّهم، واحترامهم، وثقتهم، من خلال حسن تصرُّفه، وتَحَلِّيه بمكارم الأخلاق، والسماحة، والكرم، والعدل، وطيب العشرة، وطلاقة الوجه، وحسن القول، إلى غير ذلك من مجالات الدعوة بالقُدوة.

ولنا في رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – في هذا الميدان أعظمُ أسوة وأرقاها؛ فلما أشرَق بنور النبوة، وسطع بالرسالة، وعرض الإسلام على من عرض، وسمع منه الناس دعوته؛ قال حبر اليهود عبدالله بن سلام: "والله ما وجهه بوجه كذاب".

3 – تكوين النفس وتربيتها علمًا وأدبًا وسَمتًا ومَظهرًا، وهذا – كما أشرنا سابقًا – لا تتحقق القُدوة إلا به، وهو في الوقت ذاته مجال من مَجالات الدعوة، وأسلوب مؤثر من أساليبها، فيقع التأثر في نفوس الناس بمظهر القُدوة وسمته ووقاره موقعًا بليغًا يفوق أحيانًا الاستفادة من أقواله وعلمه، وقد ورد أنَّ الذين كانوا يَجتمعون في مجلس أحمد زهاء خمسة آلاف أو يزيدون، نحو خمسمائة يكتبون، والباقون يتعلمون منه حسن الأدب والسمْت، فإذًا هذا هو التكامُل المطلوب في صاحب العلْمِ ليس فقط أن يُعلمِّ، وإنَّما يكون قُدوة يأخذ الناس من أخلاقه، ومن سيرته، ومن مواقفه، ومن ورعه، ومن زُهده، ومن عبادته، وتقواه، وخشوعه لله – عزَّ وجلَّ – وهذه خصلة نفتقدها كثيرًا في حِلَقِ العلم، أنَّك تَجد الواحد يسرد عليك، لكن شخصيته في بيته مع أهله، أو في العمل الذي يعمل فيه – مختلفة تمامًا.

المبحث الخامس : القُدوة في أوساط النساء

فإن المرأة نصف المجتمع، وبصلاحها واستقامتها يصلُح المجتمع ويسعد ويكثر خيره ويقلُّ شرُّه ؛ إذ إنَّ أغلب الفتن المحيطة بنا في هذه الأيام سببها النساء .

ولا خير في مجتمع لا يُهذِّب سلوكيات أفراده، ويجعل مِن أفراده منارات ومشعَل هداية للأمَّة.

والمرأة – لمن يُطالع تاريخ الأمم قبلنا – كانت وما زالتْ مَوضِع نظر الباحثين، وما كُرِّمت ورُفع من شانها إلا في ظل الإسلام.

ولئن كنا نَنشُد القُدوة بين الرجال فهي بين النساء وفي أوساطهنَّ آكَدُ، وإنَّ الذي ينحدر للتهافُت على الملذات ذلك الذي رضي لنفسه أن يعيش دائمًا في القاع، وما كان من ـــ امرأة نوح ولوط ـــ إلا أنهما كانا قُدوة سيئة فرضِيَتا بهذا الأمر وما قصَّه الله علينا في القرآن من صلاح بعض النسوة ـــ كمريم وآسية زوجة فرعون ـــ كان له أثر في اقتداء النساء في الأزمنة المتتالية بعدهم، وأما مَن يرقى في سلَّم الطاعات ومجاهَدة الملذات؛ فذلك صاحب الإمامة في الدِّين وقُدوة المتقين ومضرب الأمثال للعالمين، وإن كانت امرأة {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ}[التحريم: 11]، وكذلك }مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا..} [التحريم: 12].

فالمرأة القُدوة لا تزاحم الرجال، ولا تخالطهم، ولا تضاحكهم، وليست خرَّاجة ولَّاجةً، مثلُها الأعلى العَفيفات الصالِحات المجاهِدات الصابِرات المُحتسبات أعمالهم لله ربِّ العالمين.

الأمرُ ليسَ بقاصِر على الصالحات مِن الأُمم قَبلنا ؛ فالصالحات مِن أفراد هذه الأمَّة كعائشة – رضي الله عنها – كانت مضربَ المثل والقُدوة الصالحة لأمتها ولِبَنات جِنسها[1]، والصحابيَّات اللاتي رُبِّينَ في مدرسة المصطفى – صلى الله عليه وسلم – كصفيَّة بنتِ عبدِ المطلب، وأسماء بنت أبي بكر.

ها هي صفيةُ بنت عبد المطلب – رضي الله عنها – يُتوفَّى عنها زوجها، ويترك لها ابنًا هو الزُّبير رضي الله عنه وأرضاه، فنشَّأتْه نشأةَ الخشونة، وربَّته على الفروسية والحرب، وجعلتْ لِعبَه في بري السِّهام وإصلاح القِسيِّ، ودأبت على قذفِه في كل مخوفة، وتقحُّمه في كل خطر، فإذا أحجم ضربتْه ضربًا مبرحًا،

[1] – وانظر مبحث عائشة وأثرها في حياة تلامذتها في كتاب (أم العفاف) لكاتب هذه السطور

حتى إنَّها عُوتبت من بعضِ أعمامه؛ حيث قال لها: إنَّك تضربينه ضربَ مبغضةٍ لا ضربَ أم، فقالت مرتجزة:

مَنْ قالَ قدْ أَبغَضتُه فقَدْ كَذَبْ وإنَّما أَضْرِبُه لكِي يَلِبَّ

وَيَهْزِمَ الجَيْشَ وَيَأْتِي بالسَّلَبْ

آمنتْ بالله جل وعلا، وصدَّقت برسول الله صلى الله عليه وسلم، وهاجرتْ مع مَن هاجَر، وهي تخطو إلى الستِّين من عمرها، وفي غزوة أُحد جاهدت مع ابن أخيها رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، وجاهدتْ مع أخيها حمزة رضي الله عنه، ومع ابنها الزبير رضي الله عنه: {ذُرِّيَّة بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ} [آل عمران:34]، فلمَّا انكشف المسلمون في أُحد هبَّتْ هذه المرأة كاللَّبُؤة [1]، وانتزعت رمحًا مِن أَحد المنهزمين، وانقضَّت تشقُّ الصفوف وتزأر في المسلمين كالأسد، وتقول: ويْحكَم! أتفرُّون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! ويَراها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فيقول لابنها الزبير : ((رُدَّها ؛ فإنَّ أخاها حمزةَ قدْ مَثَّل به المشركون))، فقال لها ابنها: إليكِ يا أمَّاه! إليكِ يا أمَّاه! قالت: تنحَّ عني لا أمَّ لك، أتفِرُّ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: إنَّ رسولَ الله يأمركِ أن ترجعي ، فقالت – وقد كانوا وقَّافين عندَ أمر الله وأمر رسوله–: الأمرُ أمرُ الله، وأمرُ رسوله صلى الله عليه وسلم ، فتوقَّفت! وقالت: ولِمَ يردُّني رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ إنَّه قدْ بلغني أنه قدْ مُثِّل بأخي وذلِك في ذاتِ الله، وذلك في سبيلِ الله، والحمد لله، فقال صلى الله عليه وسلم لابنها: ((خَلِّ سَبِيلَها، خَلِّ سَبِيلَها)) فخاضتِ المعركة حتى انتهت، ولما وضعتِ الحربُ أوزارها، وقفتْ على حمزة أخيها وقفةَ العظماء، قدْ بُقِرَ بطنه، وأُخرجتْ كبدُه، وجُدِع أنفُه، وُقطعتْ أُذناه، وشُوِّه وجهُه، فاستغفرتْ له، وجعلت تقول: إنَّ ذلك في ذات الله، إنَّ ذلك لفي ذات الله، وقدْ رضيتُ بقضاءِ الله، دموعُها تذرف وقلبها يلتهب؛

تقول: لأصبرنَّ وأحتسبنَّ – إنْ شاء الله، لأصبرنَّ وأحتسبنَّ – إنْ شاء الله.

هذا موقفٌ مِن مواقف صفيَّة – رضي الله عنها.

[1] هي أنثى الأسد.

وها هي أسماء بنت أبي بكر – رضي الله عنها –: مضرب القُدوة لابنها في الثَّبات، ففي أوائلِ دَعوتها ورسولُ الله فارًّا بدعوته، ومهاجرًا من مكة إلى المدينة يأتي عدوُّ الله أبو جهل ويسألها أين أبوك يا ابنة أبي بكر؟ فتقول بثبات المؤمنة: ليس هنا! فيلطمها لطمةً على وجهها ؛ لطمةً طرح منها قرطها ـــ لطَمه الله بها بنارٍ تلظَّى.

ثم انظُرْ لها في أواخر سِنِي عمرها في أحلك المواقف، وقد بلغتِ السابعة والتسعين، ابنها يُحاصَر في الحرَم، ويصبح في موقف حرِج، فيذهب مباشرةً إلى أمه يستشيرها في الموقف ؛ ماذا يفعل؟ فقالت تِلكم المؤمنةُ الصابرة: أنت أعلمُ بنفسك؛ إنْ كنت تعلم أنَّك على حق، وتدعو إلى الحقِّ ، فاصبرْ عليه حتى تموتَ في سبيله، وإنْ كنت تريد الدنيا فلبئسَ العبدُ أنت، أهلكتَ نفسَك ومَن معك!

قال: يا أمَّاه! والله ما أردتُ الدنيا، وما جُرْتُ في حُكم، وما ظلمت، وما غَدرت، والله يعلم سريرتي وما في قلبي ، فقالت: الحمد لله، وإني لأرجو الله أنْ يكونَ عزائي فيك حسنًا، إنْ سبقتني إلى الله جلَّ وعلا ، تعانقَا عناقَ الوداع، ثم قالت: يا بني اقترب حتى أشمَّ رائحتك، وأضمَّ جسدك، فقد يكون هذا آخرَ العهد بك، فأكبَّ على يديها، ورِجليها، ووجهها، يَلثِمها ويُقبِّلها، دموع تشتبك في دموع، وهي تتلمس ابنها وهي عمياء لا ترَى، ثم ترفع يدها، وهي تقول: ما هذا الذي تلبسه؟ قال: دِرعي ، قالت: يا بني! ما هذا لباس مَن يريد الشهادةَ في سبيلِ الله؟ انزعْه عنك؛ فهو أقوى لوثبتِك، وأخفُّ لحركتك، والبسْ بدلًا منه سراويلَ مضاعفةً، حتى إذا صُرعتَ لم تنكشفْ عورتك، فنزع درعَه وشدَّ سراويلَه، ومضى إلى الحرم لمواصلةِ القتال، وهو يقول: لا تَفْتُري عن الدعاءِ يا أمَّاه! فرفعتْ كفها قائلة:

اللهم ارحمْ طولَ قِيامه، وشدةَ نحيبه في سوادِ الليل والناس نيامٌ.

اللهم ارحمْ جوعَه وظمأه في هواجرِ مكة والمدينة وهو صائم.

اللهمَّ إني قد أسلمتُه لك، ورضيتُ بما قضيتَ فيه فأثِبْني فيه ثوابَ الصابرين.

ويذهب ابنها، وبعدَ ساعة من الزمن انقضتْ في قتال مرير غير متكافئ، تلقَّى ابنها عبدُ الله ضربةَ الموت، ليلقى الله عز وجل ، ليس هذا فحسبُ؛ بل يُصلب جُثمانُه كالطودِ الشامخ في الحجون .

وتسمَع الأمُّ الصابرة ذات السبع والتسعين سنة، العمياء البصيرة، وتذهب إلى ولدِها المصلوب تتلمَّس الطريقَ حتى تصل، فتأتي فإذا هو كالطود الشامخ، تقترب منه وتدعو له، وإذ بقاتلِه يأتي إليها في هوان وذلَّة، ويقول: يا أماه! إنَّ الخليفة أوصاني بك خيرًا، فتُصيح به: لستُ لك بأمٍّ، أنا أمُّ هذا المصلوب، وعندَ الله تجتمع الخصوم، ويتقدَّم ابن عمر رضي الله عنه مُعزِّيًا لها، ومواسيًا لها، فيقول: اتَّقي الله واصبري، فتقول – له بلسانِ المؤمنة الواثقة بموعود الله–: يا ابنَ عمر، وماذا يمنعني أنْ أصبر، وقد أُهدي رأسُ يحيى بن زكريا إلى بغيٍّ مِن بغايا بني إسرائيل؟ أرأيتُم ما أعظمَ النساء[1]!

إخواتاه : النِّساء محاضنُ الرجال، بصلاحهنَّ يصلح الجيل، وبفسادهنَّ يفسد الجيل، ولو استطردْنا في الأمثلة لوجدْنا أمثلةً كثيرةً يعجزِ الرجال أن يقِفوا تلك المواقف، ناهيك عن النساء!

آنَ للنساءِ أن يقتدِين بالطُّهر والعفة والفضيلة والجرأ ة والشجاعة ؛ بـــصفيةَ وأسماءَ وعائشةَ.

[1] –سير أعلام النبلاء2/291-292

الفصل الثاني

القُدوة مبادئ وأصول

فإنَّ القُدوة له مبادئ وأصول لا يَتخلَّى عنها تَحت ضغْط الواقع إلى عمل تَغييراتٍ، وإجراء تبديلاتٍ في بعض أحكام الدين؛ لأجل مسايرة مَن حوله؛ لأن هذه قضيةٌ خطيرة جدًّا.

فالقُدوة يرَى الناس مَن حوله ربَّما يتنازلون عن مبادئهم، بل عن بعض ما يعتقدون؛ مُسايَرَة لمن حولهم، أمَّا هو فثابت بثبات الله له، لا يتزحزح قِيدَ أنملة؛ لأنه يعلم أنَّ العاقبةَ للمتقين، ولا تزال طائفةٌ على الحق منصورة لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى يأتي أمرُ الله، ويدعو ربه صباحَ مساءَ أن يثبته الله على الدين، وإن خذله الناس، ولم يعينوه؛ لأنَّه يعلم أنَّ الجماعة قد تكون في شخصٍ بمفرده.

المبحث الأول: أصولُ القُدوة:

الأصل الأول: الصَّلاح، وهذا يتحقَّق بثلاثة أركان:

الرُّكن الأول: الإيمانُ وتحقيقُ معنى التوحيد ومُقتضياته، مِن معرفة الشهادتين والعمل بمقتضاهما،والسعي الحثيث في دعوة الناس إليها .وتجنب نواقضها،

الركن الثاني: العبادة؛ فيستقيم القُدوةُ على أمر الله من الصلاة، والزكاة، والصيام، وسائر أركان الإسلام العملية، ويهتمُّ بالفرائض والمستحبات، ويَجِدُّ في اجتنابِ المنهيات والمكروهات.ويتورعُ عن المشتبهات.

ويتمثَّل القُدوةَ الحديثَ القدسيَّ: ((... وما تَقرَّبَ إليَّ عَبدِي بشيءٍ أحَبَّ إلَيَّ ممَّا افترضتُ عليه، وما يَزالُ عبْدِي يَتقرَّبُ إلَيَّ بالنوافلِ حتَّى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سَمعَه الذي يَسمَعُ به، وبَصرَه الذي يُبصِرُ به، ويدَه التي يَبطِشُ بها، ورِجلَه التي يَمشِي بها، وإنْ سألَني لأعطينَّه، ولئنِ استعاذني لأُعيذَنَّه...))[1].

[1] رواه البخاري في صحيحه (6502) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الركن الثالث: الإخلاص: فيكونُ المقصودُ بالقولِ والعِلم والعملِ وجهَ الله، بعيدًا عن أغراض النَّفْس، وأغراض المخلوقين، بل عبودية خاضعة تمامَ الخضوعِ لله، أمرًا ونهيًا، ونظرًا وقصدًا، وإن النصح والإخلاص يرقَى بالعبد الضَّعيف العاجز إلى رتبة القادِر العامِل، وقد يبلغ بنيته ما لا يبلغه بعمله والله من وراء القصد وهو المطلع على مكنون الصدور ، وقد روي في الأثر "نية المؤمن أبلغ من عمله "[1].

ولقدْ سجَّل الرسولُ – صلَّى الله عليه وسلَّم – موقفًا عظيمًا حين خاطبَ جندَه الغازين في سبيل الله بخير هذه الطائفة بقوله: ((إنَّ أقوامًا بالمدينةِ خلْفَنا، ما سَلَكْنا شِعبًا ولا واديًا إلا وهُم معنا فيه؛ حبَسَهُم العُذرُ))[2].

وأمَّا ضَعْفُ الإخلاصِ عندَ كثيرٍ مِن ذوي المواهب والمواقع القياديَّة، فقدْ جعَل تابعيهم والمعجبين بهم يَشْقَوْنَ بمواهبهم، ويَرجِعون بها القَهْقَرَى، يتبين من كلِّ ذلك أنَّ الإسلامَ يلحظ في أعمالِ الناس ما يُقارِنُها مِن نيات، وما يُصاحِبها من دواعٍ وبواعث.

وانظرْ إلى حالِ السَّلف وحثهم على تصحيحِ النيَّة، والبُعد عن ابتغاءِ الشهرةِ، وعرَض الدنيا، ونيل المناصب ، قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : «مَن أراد أنْ يأكلَ الخبز بالعِلم، فلتبكِ عليه البواكِي».

قال الذهبي رحمه الله : «وعلامة المخلِص الذي قد يحبُّ شهرة، ولا يَشعُر بها، أنه إذا عُوتِبَ في ذلك، لا يَحْرِد، ولا يُبرِّئ نفسه، بل يعترفُ ويقول : رحِم اللهُ مَن أهدى إليَّ عيوبي، ولا يكن معجبًا بنفسه لا يشعُر بعيوبها، بل لا يشعُر أنه، فإن هذا داءٌ مُزْمن»[3].

---

1 – قال السخاوي في المقاصد الحسنة (ص: 701) رواه العسكري في الأمثال، والبيهقي في الشعب، من جهة ثابت عن أنس به مرفوعا، وقال ابن دحية: لا يصح، وقال البيهقي: إسناده ضعيف ، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة 2216

[2] رواه البخاري في صحيحه (2839) – واللفظ له – وأبو داود في سننه (2508)، وابن ماجه في سننه (2764)، وأحمد في مسنده (12009) من حديث أنس رضي الله عنه.

[3] – السير (393/7).

قال المُحدَّثُ المُلهم عمر ـــ رضي الله عنه ـــ في كتابٍ لأحد إخوانه : «فمَن خلصتْ نيتُه في الحقِّ ولو على نفْسه ، كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومَن تزيَّن بما ليس فيه شانَه الله»[1].

الأصل الثاني: حُسن الخُلُق: إذا كان الصلاحُ يتوجَّه إلى ذات المقتدَى به؛ ليكونَ صالحًا في نفْسه قويمًا في مسلكِه؛ فإنَّ حُسن الخُلق يتوجَّه إلى طبيعة عَلاقته مع الناس، وأصول تعامله معهم، وإليه الدعوةُ النبويَّة في قوله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((... وخالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ))2.

والكلامُ على حُسن الخُلق – وحقَّ أن تُسكَب عليه العَبرات ؛ لأنَّه واسعٌ متشعِّب، وقلَّ مَن يقوم بتأديته كما ينبغي ، ولأننا نعيش أزمة أخلاق ضربت بأطنابها في كل مكان، والله المستعان . ولكن سأُحاول أن نحصرَ عناصرَه الكبرى في خِلالٍ خمْس:

الصِّدق: تبرز أهميةُ الصدق وعِظم أثره في مسلك القُدوة في قوله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((إنَّ الصِّدقَ يَهْدِي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يَهْدِي إلى الجَنَّةِ...))3.

وقدْ سأل هِرَقل أبا سفيان عن سيرة النبي – صلى الله عليه وسلم – قائلًا: «هلْ كنتم تتَّهمونه بالكذبِ قبلَ أنْ يقولَ ما قال، فذكرتُ أنْ لا، فقد أعرِف أنه لم يكن ليذرَ الكذبَ على الناس، ويكذبَ على الله»[4].

هل رأيتَ أُسوةً أزرَى ممَّن يتسنَّم مواقع القيادةِ والقُدوة، بينما ترمقه الألحاظ، وتشيرُ إليه الأصابع بالخيانةِ والكذبِ، وما كان للتهريج والادِّعاء، والهزل أن يُغني فتيلًا عن أصحابه، وفي الحديث: ((يُطبَعُ المؤمنُ على الخِلالِ كلِّها إلَّا الخيانةَ والكذبَ))[5]. فإن القدوة لا يكذب ، إذ كيف يفعل ذلك وهو يعلم أن العيون ترمقه ، وترقب حركاته وسكناته.

---

[1] – إعلام الموقعين (159/2).

[2] رواه الترمذي في سننه، وقال: حسن صحيح 1987، وأحمد في مسنده 21354، وحسنه الألباني في المشكاة 5083 من حديث أبي ذر.

[3] رواه البخاري في صحيحه 6094، ومسلم في صحيحه 2607 من حديث ابن مسعود – رضي الله عنه.

[4] رواه البخاري في صحيحه 7، ومسلم في صحيحه 1773 عن ابن عباس – رضي الله عنهما.

[5] رواه أحمد في مسنده من حديث أبي أمامه 22170، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة 3215.

الصبر: الأزمات إذا استحكمتْ، والضوائق إذا ترادفتْ، لا دَفْعَ لها ولا توقِّيَ – بإذن الله – إلَّا بالصبر؛ ذلك أن: ((... الصَّبْرُ ضِيَاءٌ...))[1]، ومَنْ أَوْلَى مِن الرجل الأسوة بتوطين نفسه على احتمال المكارِه مِن غير ضجر، والتأني في انتظارِ النتائج مهما بعُدتْ، والصبر من معالم العظمةِ المحمودة، وشاراتِ الكمالِ العالي، ودلائل التحكُّم في النفس وهواها، وهو عنصرٌ من عناصر الرجولة الناضِجة، فأثقال الحياة وأعباؤها لا يُطيقها الضِّعافُ المهازيل، والحياة لا ينهض بأعبائها ورِسالتها إلا الأَكْفَاءُ الصابرون، وقدِ استحقَّتْ فئة من بني إسرائيل الإمامةَ والرِّيادة بصبرهم، وحسن بلائهم؛ {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة: 24].

قد قال شيخ الإسلام رحمه الله : " لا تنال الإمامة في الدين إلا بالصبر واليقين "

وأدركتْ بنو إسرائيل حالة استحقوا بها ميراثَ الأرض المباركة، وكان دِرعُهم في ذلك الصبرَ؛ {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا...} [الأعراف: 137]؛ ولهذا فإن نصيبَ ذوي القُدوة والأسوة من العناء والبلاء مكافئٌ لما أوتوا من مواهب، وما تَحمَّلوا من مشاقَّ، يُجسِّد هذا قولُ رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – : ((أشَدُّ النَّاس بلاءً الأَنْبياءُ، ثُمَّ الأَمْثلُ فَالأمْثلُ))[2].

الرحمة: الرحمة عاطفةٌ حيَّة، نابضة بالحبِّ للناس، والرأفة بهم، والشفقة عليهم، والرحمةُ المذكورة هنا يُقصد بها: الرحمةُ العامةُ لكلِّ الخلق، فيلقى المسلم الناسَ قاطبةً وقلبُه لهم بالعطف مملوء، إنَّ الرحمةَ الخاصةَ قد تتوفر في بعض الناس، فيرقُّ لأولادِه حينَ يلْقاهم، ويهشُّ لأصدقائه حين يُجالسهم، ولكنَّ

---

[1] رواه مسلم في صحيحه 223، والترمذي في سننه 3517، والنسائي في الصغرى 2437 عن أبي مالك الأشعري.

[2] رواه الترمذي في سننه، وقال: حسن صحيح 2398، والدارمي في سننه 2825، وأحمد في مسنده 27079 من حديث سعد – رضي الله عنه – وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" 143.

الرحمةَ المطلوبة مِن القُدوة أوسعُ مِن ذلِك وأرحبُ؛ ((... ارْحَمُوا مَنْ فِي الأرضِ، يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ...))[1]

بل إنَّ الرحيمَ تنال رحمتُه الحيوانَ مِن غير البشر، واللهُ يُثيب على هذه الرحمة، ويغفر بها الذنوب، فالذي سقَى الكلب لما رآه يأكل الثرَى من العطش، شكَرَ الله له فغفَر له، والمرأةُ البغيُّ مِن بني إسرائيل سقَتْ كلبًا كان يطوف حولَ بئر في يومٍ حار، قد دَلَعَ لسانه من العَطش، فنزعت له خفَّها وسقتْه، فغفر لها، ولئن كانتِ الرحمة بكلب تغفر ذنوبَ البغايا، فإنَّ الرحمة بالبشر تصنع العجائبَ.

الرِّفق: والرِّفق صِفة المصطفى – صلَّى الله عليه وسلَّم – التي رحِم الله العباد بها، فاصطفاه لها؛ يقول الله – عزَّ وجلَّ –: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: 159]، نعم؛ لقدْ أدرك الله برحمته أنْ يَمُنَّ على العالَم برجل يَمسح آلامَه، ويُخفِّف أحزانه، ويستميتُ في هِدايته، فأرسل محمدًا – صلَّى الله عليه وسلَّم – وسكَب في قلبِه من العِلم والعمل، وفي خُلُقه من الإحسان والبِر، وفي طَبعه من اللِّين والرفق، وفي يدِه مِن الكرم والندى – ما جعلَه أزكى عبادِ الله قلبًا، وأوسعَهم عطفًا، وأرحبَهم صدرًا، وألينهم عريكةً، هذا بعضُ نعتِ محمد – صلَّى الله عليه وسلَّم – المُجتزَأ مِن قوله – تعالى –: {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: 4]، وفي قبسٍ مِن نور النبوة في باب الرفق يقول النبي – عليه الصلاة والسلام –: ((إنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، ويُعطِي على الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وما لا يُعطِي على ما سِواه))[2].

وينبغي أن يتمثَّل القُدوة في هذا البابِ الرفقَ بمجالسيه، فيتحمل مَن كان منهم ذا فَهم بطيء، ويسَع بحِلمه جفاءَ ذا الجهالة؛ لا يُعنِّف السائلَ بالتوبيخ القبيح فيخجله، ولا يَزجر فيضع مِن قَدْره.

---

1 رواه الترمذي في سننه 1924، وقال: حسن صحيح، وأبو داود في سننه 4941، وأحمد في مسنده 6494، وقال شعيب الأرناؤوط: صحيح لغيره.

2 رواه مسلم في صحيحه 2593، وأبو داود في سننه 4807، وأحمد في مسنده 16805 من حديث عائشة.

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في أن معاملة العباد بصفة حسنة ، والتخلق معهم بأخلاق فاضلة مما يحبه الله ويرضاه وتكون معاملة الرب لعبده بعين هذه الصفه في الدنيا والأخرة والعكس بالعكس فيمن ضيق على عباد الله وشق عليهم و لم يقبل معاذيرهم ، و لم يغفر خطئهم عامله الله بنفس ما يحب أن يعامل به خلقه .

قال رحمه الله " وهو سبحانه وتعالى رحيم يحب الرحماء، وإنما يرحم من عباده الرحماء، وهو ستير يحب من يستر على عباده، وعفو يحب من يعفو عنهم، وغفور يحب من يغفر لهم، ولطيف يحب اللطيف من عباده، ويبغض الفظ الغليظ القاسي الجعظري الجواظ، ورفيق يحب الرفق، وحليم يحب الحلم، وبر يحب البر وأهله، وعدل يحب العدل، وقابل المعاذير يحب من يقبل معاذير عباده، ويجازي عبده بحسب هذه الصفات فيه وجوداً وعدماً، فمن عفا عفا عنه ومن غفر غفر له ومن سامح سامحه ومن حاقق حاققه، ومن رفق بعباده رفق به، ومن رحم خلقه رحمه، ومن أحسن إليهم أحسن إليه، ومن جاد عليهم جاد عليه، ومن نفعهم نفعه، ومن سترهم ستره، ومن صفح عنهم صفح عنه، ومن تتبع عورتهم تتبع عورته، ومن هتكهم هتكه وفضحه، ومن منعهم خيره منعه خيره، ومن شاق شاق الله تعالى به، ومن مكر مكر به، ومن خادع خادعه، ومن عامل خلقه بصفة عامله الله تعالى بتلك الصفة بعينها في الدنيا والآخرة."[1]

التواضع: جُبلت النفوسُ على كُره مَن يستطيل عليها ويستصغرها، كما جُبلت على النفرة ممَّن يتكبَّر ويتعالى عليها، حتى ولو كان ما يَقوله حقًّا وصِدقًا، إنَّ قلوبَهم دون كلامه مُغلقة، وصدورَهم عن إرشاده ووعظه مُوصَدة، إنَّ التواضُعَ خُلُق يُكسِب صاحبَه رضا أهل الفضل ومودَّتَهم، ومَنْ أحقُّ بهذا الخُلق من رجل القُدوة؛ فهو أنجحُ وسيلةٍ على الائتلاف؟!... إنَّ ابتغاء الرفعة، وحُسن الإفادة من طريق التواضع - هو أيسرُ الطريق وأوثقها؛ ذلك أنَّ التواضع في محله يورِث المودَّةَ، فمَن عمَّر فؤاده بالمودة، امتلأتْ عينه بالمهابَة.

---

[1] - الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: 35)

وما أجملَ ما ذكَره الذهبي في السير [1]: أنَّ عبد الواحد ابن زياد قال : لقيتُ زُفَر بن الهُذَيلِ فقلتُ : صرتم حديثًا في الناس وضحكةً! قال وما ذاك ؟ قلت : تقولون : ادرؤوا الحدود بالشبهاتِ ، ثم جئتم إلى أعظمِ الحدود فقلتُم تُقامُ للشبهة! قال وما هو؟ قلت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لا يُقْتَل مسلمٌ بِكافِرٍ)) ، فقلتم : يُقتل به – يعني بالذمِّي؟! قال : فإني أشهدكَ الساعة أنِّي قد رجعتُ عنْه.

قال الذهبيُّ رحمه الله: «هكذا يكون العالِمُ وقَّافًا مع النصوص».

أيها القُدوة : أرفعُ الناس قدرًا مَن لا يرى قدرَه ، فاعرف قدْر نفسك، ولا تضَعْها في غير موضعها ، وإذا خرجت مِن بيتك فلا يقعنَّ بصرُك على مسلم إلا رأيتَه أنه قد يكونُ خيرًا منك .

تواضع لأقرانك، ولا تستعلِ عليهم ، ولا تفرح بالنيل منهم ، والحطِّ من قدْرهم، وعيبِهم بما ليس فيهم ، وإظهار ذلك في مظهرِ النصيحة والتقويم لهم ، ولا تتجاهل نفْعَهم؛ فإنْ لم ترض منهم بعض القولَ فقلْ : حسبُهم أنهم يدْعُون إلى الله ويُعلِّمون الناسَ الخير.

ويلتحقُ بهذا الأمر ويلتصق به: حديثُ المرء عن نفْسه، وكثرة الثناء عليها، فذلِك شيءٌ ممقوت، يتنافى مع خلُق التواضع وإنكار الذَّات، فينبغي لرجلِ الدعوة ومحلِّ القُدوة ألا يَدَّعي شيئًا يدلُّ على تَعاليه، بلْ إنَّ حقًّا عليه أن يعرِف أنَّ كل ما عنده مِن علم أو مرتبة، هو محضُ فضلِ الله عليه، فليتحدَّثْ بفَضلِ الله لا بفَضلِ نفْسه، فإذا أدرك الناسُ منه ذلك، فتحوا له قُلُوبَهم، وتحلَّقتْ حوله نفوسُهم قَبل أجسادهم، ووقَع وعظُه وتوجيهُه منهم موقعَ القَبول والرِّضا، ونال مِن الحُظوة على قدْرِ إحسانه وقصده.

الأصل الثالث: موافقة القول العمل؛ يقول الله – عزَّ وجلَّ –: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ} [الصف: 2 – 3]، الصدق ليس لفظة تَخرج من اللسان فحسب،

[1] –سير أعلام النبلاء 8/40-41

ولكنه صدق في اللهجة، واستقامة في المسلك، الباطن فيه كالظاهر، والقول فيه صنو العمل... هذا جانب.

وجانب آخر: أنَّ الناسَ والنفوس مَجبولة على عدم الانتفاع بمن علِمت أنَّه يقول ولا يعمل، أو يَعلم ثُم لا يعمل؛ ولهذا قال شُعيبٌ - عليه السَّلام -: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود: 88].

وجانب ثالث: هو أنَّ كثيرًا من الناس لا يتوجَّه نحو العمل حتى يرى واقعًا ماثلًا، ونَموذجًا مُطبقًا يتخذه أسوة، ويدرك به أنَّ هذا المطلوب أمر في مَقدور كلِ أحد، بل متى يكون المرء قُدوة صالحة وأسوة حسنة إذا لم يسابقْ إلى فِعْلِ ما يأمر به مِن خير، وتَرْكِ ما ينهَى عنه من سوء؟!

وقد جاء في الصحيحين وغيرهما عن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - أنَّ النبي - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال: ((يُجاءُ بالرَّجُلِ يومَ القيامَةِ، فيُلقَى في النارِ، فتَنْدَلِقُ أَقْتَابُه في النارِ، فيَدُورُ كما يَدورُ الحمارُ برَحاه، فيَجتمِعُ أهلُ النارِ عليه، فيقولون: أيْ فلان، ما شأنُك؟ أليسَ كنتَ تأمرُنا بالمعروفِ وتَنهانا عنِ المُنكَرِ؟! قال: كنتُ آمرُكم بالمعروفِ ولا آتِيه، وأنهاكُم عنِ المنكَرِ وآتيه)).

وَغَيْرُ تَقِيٍّ يَأْمُرُ النَّاسَ بِالتُّقَى = طَبِيبٌ يُدَاوِي النَّاسَ وَهْوَ عَلِيلُ

وهُنا مسألةٌ مُهمة يَحسن التنبيه إليها: وهي أنَّ المسلم - حتى ولو كان قُدوةً مترقيًا في مدارج الكمال - قدْ يغلبه هوى، أو شهوة، أو تدفعه نفْسٌ أمَّارة بالسوء، أو يتزغه الشيطان، فتصدر منه زلَّة، أو يَحصل منه تقصير، فإذا حدَث ذلك، فليبادرْ بالتوبة والرجوعِ إلى الله، وليس مِن شرْط القُدوةِ العصمةُ؛ فالعِصمة إنما هي للأنبياء - عليهم السلام - فيما يبلغون به عن ربهم ، ولا يَضيرك تقصيرُك ما دمتَ مخلصًا في نصحك، حريصًا على تكميل نفسك وغيرك؛ فالسعيُ في التكميل كمال، ومَن الذي يخلو مِن النقائص؟! وأيُّ الرجال المهذَّب؟!

ومَن ذا الَّذي تُرْضَى سَجايَاهُ كلُّها * * كَفَى المَرْءَ نُبْلًا أنْ تُعَدَّ مَعايبُه[1]

وليُعَلم أنَّ هذا ليس بمانعٍ مِن التأسي به والاقتداء، وقدْ حدَّث مالكٌ عن ربيعةَ قال: «سمعتُ سعيدَ بن جُبير يقول: لو كانَ المرءُ لا يأمُرُ بالمعروفِ ولا ينهى عن المنكَر، حتى لا يكونَ فيه شيءٌ، ما أمر أحدٌ بمعروف، ولا نَهَى عن منكر»، قال: «وصَدَق؛ مَن ذا الذي ليسَ فيه شيءٌ؟!».

ولو ترَك الناس النصح بحُجَّة التقصير لَما بقِي ناصح على وجه الأرض، ولو كان مِن شرط القدرةِ العصمةُ لَما بقِي للناس قُدوة بعدَ الأنبياء – عليهم السلام.

قال ابن حزم : «فَرْضٌ على الناس تَعَلُّمُ الخيرِ والعملُ به؛ فمَن جمع الأمرين، فقدِ استوفى الفضيلتين معًا، ومَن عَلِمَهُ و لم يعملْ به فقد أحْسَنَ في التعليمِ وأساءَ في ترْك العملِ به، فخلَط عملًا صالحًا وآخر سيئًا»[2].

وقدْ قال الحسن البصريُّ لمُطرِّف بن عبدالله بن الشِّخِّير: يا مطرِّف، عِظْ أصحابَك، فقال مطرِّفٌ: إنِّي أخاف أنْ أقولَ ما لا أفعل، فقال الحسن: يرحمك الله، وأيُّنا يفعلُ ما يقول؟ ودَّ الشيطانُ لو ظفِر بهذه منكم، فلم يأمرْ أحدٌ بمعروف، و لم ينهَ عن منكَر3.

وقال أيضًا: ولو لم يَنْهَ عن الشرِّ إلَّا مَن ليس فيه منه شيء، ولا أمَر بالخير إلا مَن استوعبه ، لما نهى أحدٌ عن شر، ولا أمَر بخيرٍ بعدَ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم» وحسبُك بمن أدَّى رأيه إلى هذا فسادًا، وسوءَ طبعٍ، وذمَّ حال(4).

ثم إنَّ ميل الإنسان بطبعه إلى بعضِ النقائص لا ينافي التقوى، إذا كان لا يَغشَى تلك النقائص، وكان يجاهِدُ نفْسَه على بغضها.

---

[1] ديوان بشار بن برد ص45.

[2] الأخلاق والسير ص92.

3 – بهذا المبحث بتصرُّف من "القدوة مبادئ ونماذج"، للشيخ صالح بن حميد، ص15.

[4] الأخلاق والسير لابن حزم "ص92".

المبحث الثاني: القُدوة قبلَ الدَّعوة:

فإنَّ القُدوةَ يَحتاج دومًا إلى الدَّعوة، وإلى صيانة الناس عن السَّفاسِف والرَّذائل، وليس ثَمَّ أمرٌ أخطرُ على الأمة مِن فُقراء الأخلاق، ولا أشدُّ تنفيرًا مِن الدِّين، إلَّا مَن ساءَت منهُمُ الأخلاق وهم يَحسَبون أنَّهم يُحسنون عمَلًا...

أمَّةُ الإسلامِ في مرحلةٍ تحتاج فيها أن تصلَ للجميع صورةُ الشخص المسلمِ المتديِّن كأحْسنَ ما تكون، كما أرادها له الإسلامُ، الصورة التي ستمكِّننا مِن نشْر هذه الدعوة، وهداية الناس، ودعوتهم إلى الاستقامة، الأمَّة في مرحلة خطيرةٍ ومنعطفات أخْطَر، تقاسي الجُرحَ بعدَ الآخر، لم يَعُدْ هناكَ وقتٌ إلا لصادِقِ الفِعال، وتحقيق سامي المقال، وامتثال الإسلام عقيدةً، وخُلُقًا، وسَمتًا، وتعامُلًا، وحديثًا، هذا الالتزامُ الخُلُقي هو الذي فتَح الدنيا بفضل الله – تعالى – وأوصل الإسلامَ إلى أقاصِي العالم.

ولن يتأتَّى لنا ذلك إلا إذا بدأ كلُّ فردٍ بنفسه، فهذَّبها واستكمل فضائلَها، ونقَّاها مِن رذائلها وشوائبها، وربَّاها كأحسنِ ما تكون التربيةُ، وروَّضها في رياض الطاعة، وهذا الدرب ولا غيره هو ما سيوصل الأمةَ بفضل الله إلى القيادة والرِّيادة، وينشر دعوة الإسلام في أصقاعِ الأرض.

وأرْشد عُقبةُ بن أبي سفيان مؤدِّبَ ولده بقوله: «ليكنْ أوَّلَ ما تبدأ به مِن إصلاح بُنَيَّ إصلاحُ نفسك؛ فإنَّ أعينَهم معقودةٌ عليك، فالحسَن عندهم ما استحسنتَ، والقبحُ عندَهم ما استقبحتَ"، والأجملُ قولُ أحدهم: " كونوا عُبَّادًا قبلَ أن تكونوا قُوَّادًا، تصل بكم العبادة إلى أحسنِ قيادة".

ولو تأمَّلْنا دعوة الرُّسل السابقين، وكيف يبعث الله من القوم أحسنَهم أخلاقًا، ومَن عُرِفوا بين قومهم بالصدق والأمانة، فالمتلقِّي متى شعَر بالراحة والاطمئنان والثقة بمَن يدعوه فسيُقبِل عليه، وفي أقلِّ الأحوال لن يَنفِر منه.

كان أصحابُ النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – كل واحد منهم أمَّة في فرْدٍ، يرسله النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – في الفيافي والقِفار والصحراء لأناسٍ ما رآهم، ولا عايشهم، فيتحلَّى معهم بحُسن الخُلق، وطِيب المعشر، والسماحة

في المعاملة، والصِّدق في الحديث، والعِفَّة عن حرماتهم، فنَبُلوا وصاروا قُدواتٍ حَيَّةً، وما أمرُ مصعبِ بنِ عمير عنا ببعيدٍ!

وشخصيةٌ لها هذه الصفات كيف يقابلها الآخرون؟ وما تأثيرُها ولو لم تتكلَّم، ولو لَم تَعتلِ المنابر، وتتحدَّث في المؤتمرات والقنوات؟! حقًّا: «إنَّ لله رجالًا أحيوا الحقَّ بذِكره، وأماتوا الباطل بهَجرِه».

ولو أن المسلمين تخلقوا بأخلا ق الإسلام ، وطبقوا الإسلام على أنفسهم ، وأحسنوا عرضه على الناس بصورة جميلة ، وغير مملة ، ولا منفرة ، لأذعن لهم العا لم ،والواقع المعاصر يشهد بذلك ، ويذكر الأستاذ زغلول النجار ـــ وفقه الله ـــ للأستاذ ت.ب. إيرفنج الأستاذ بجامعة تنسي الأمريكية حينما وقف مخاطباً جمعاً من المسلمين في مدينة جلاسجو ببريطانيا منذ سنوات قال فيها: "إنكم لن تستطيعوا أن تنافسوا الدول الكبرى علمياً، أو تقنياً، أو اقتصادياً، أو سياسياً، أو عسكرياً، ولكنكم تستطيعون أن تجعلوا تلك الدول تجثوا على ركبها أمامكم بالإسلام، أفيقوا من غفلتكم لقيمة هذا النور الذي تحملون، والذي تتعطش إليه أرواح الناس في مختلف جنبات الأرض، تعلموا الإسلام وطبقوه، واحملوه لغيركم من البشر تتفتح أمامكم الدنيا، ويدِنْ لكم كل ذي سلطان، أعطوني أربعين شاباً ممن يفهمون هذا الدين فهماً عميقاً، ويطبقونه على حياتهم تطبيقاً دقيقاً، ويحسنون عرضه على الناس بلغة العصر وأسلوبه وأنا أفتح بهم الأمريكتين..!![1]

والإسلامُ مِن مبدأ دعوته قدْ أرسى القواعِدَ الأساسية، والأحكامَ الشرعية، واعتنى عنايةً خاصَّة بجانبِ الأخلاق والعلاقات الإنسانية؛ فهو ينشُر بيْن الناس أواصِرَ الرحمة، والحب والتسامُح، والفضل، والتعاون، ومراقبة الضمير، وخشية الله، إلى غير ذلك مِن المعاني الكريمة، ورتَّب عليها الأجرَ والثواب والفضلَ، والمنازل الرفيعة، وتلك هي أدواتُ الدعوة الميدانيَّة الناجحة.

والشبابُ يَحتاج لرؤيةِ نَماذجَ صادقةٍ مع ربِّهم، تتحلَّى بالأخلاق الكريمة، يَخرجون إليهم، ويتعاملون معَهم بالأخلاق الحسَنة، فيُحَبِّبوهم في الاستقامة، ولسانُ الحال – كما نعلم – أبلغُ مِن ألْف مقال...

[1] - قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر للدكتور زغلول النجار ص142

ليستِ العِبرة في كَمْ يسمعون من الكلام، أو كم يَقرؤون من الكتب، إنَّما العِبرةُ في اتِّباع أحسن الكلام وتطبيقه، ولو كان قليلًا؛ {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر: 18]، وما أحوجَ الأمة لأمثالهم!

المبحث الثالث: الأساليب التي ينبغي أن تكون في القُدوة:

القُدوةُ يُنوِّع أسلوبَه مع من يتربَّى تحتَ يدِه؛ لأنَّ بعضَ الناس يظُنُّ أنَّ القُدوة له أسلوبٌ وطريق واحد لا يتجزَّأ، ومنهج واحد لا يتغيَّر، وهذا خلاف سِيرة أسلافنا – رحمهم الله – الذين تنوَّعت بهم الأساليبُ، فضربوا بذلك أروعَ التوجيه للخلف للاقتداء بهم، فهناك على سبيلِ المثال:

القُدوة في الشجاعة: الشيخُ ابنُ باز رحمه الله، شجاعٌ في الحقِّ؛ كان إذا علم بظُلمٍ يقَع على المسلمين ، أو عدوان على شريعةِ رب العالمين ، لا يرق له جفنٌ حتى يرفعَ المظلمة عنه، ويصدَعَ بالحقِّ أمام عدوه..

الحِلم شيمتُه ولكنْ حِينَما ** يُعصَى الإلهُ فإنَّما هو ضَيْغَمُ[1]

فلا يَغرنَّك وجهٌ راقَ مَنظرُه ** فالنّصلُ فيه المنايا وهو بَسَّامُ

يقول الأستاذ محمد المجذوبُ رحمه الله : حينما كان الشريخُ رئيسًا للجامعة الإسلامية صدَر حُكم بقتْل أحد الدعاة في بلدٍ ما ، فاعترى الشيخَ ما يعتري المؤمنَ مِن غمٍّ في هذه النازلة التي تستهدف الإسلام؛ فنفسه تخذل عنه .

يقول المجذوب : فكلَّفني بصياغةِ برقيةٍ لحاكمِ ذلك البلد ، قال : فكتبتُها بقلبٍ منذرٍ يقطر غَيرةً وغضبًا وجئتُ بها وكُلي يقين أنه سيدخل على لهجتِها من التعديل ما يجعلها إلى لُغة المسؤولين المنذرين، لكنَّه حطَّم كل توقعاتي !! فأقرَّها جميعًا، ثم قال أضف إليها قولَ الله: {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا}[2].

إنَّ الشجاعة ليستْ مُنازلةً في الحروب فحسبُ ! (الشجاعة) تكليفٌ يلتزم المسلم أداءَه في السِّلم والحرب ، الأمر والنهي عن المنكَر في عالم ضال

---

[1] أي: أسد.

[2] – علماء ومفكرون عرفتهم؛ للأستاذ محمد المجذوب رحمه الله ص91-92

(شجاعة)، الدعوة إلى الإصلاح في أمَّة فاسدة النُّظم (شجاعة)، الثبات أمامَ الشبهات والشهوات (شجاعة)، فِعل أوامر الله والكفُّ عن نواه ي الله (شجاعة)، الدِّفاع عن النفس والمال والعِرْض ، والدِّين والمظلوم (شجاع)، ثبات المسلِمة أمامَ شبهات أدعياء تحرير المرأة (شجاعة)...

2- القُدوة في التضحية للمبدأ والثبات عليه والعقيدة: يوسفُ بن يحيى البويطيُّ خليفةُ الإمام الشافعي، كانتِ الفتاوى ترِد عليه من السُّلطان فمَنْ دُونه، وهو مُقتدًى به في أعمال المعروف، كثيرُ التلاوة، لا يَمُرُّ يوم ولا ليلة غالبًا إلا ويَختم، فسعى به مَن يَحسده، وكتَب فيه إلى ابن أبي دُؤاد بالعِراق، فكتَب إلى والي مصر يَمتحِنه؛ أي: يسأله؛ هلِ القرآن مخلوق أو غير مخلوق؟ فامتحنه فلم يُجبْ - أي بخَلْق القرآن - فقال له: قل فيما بيني وبينك، قال: إنَّه يَقتدي بي مائةُ ألف، ولا يَدرون المعنى، فأُمِر أن يُحملَ إلى بغداد في أربعين رطلٍ حديد، يقول الربيع - صاحب الشافعي -: ولقدْ رأيتُه على بغل، وفي عُنقه غُلٌّ, وفي رِجليه قَيْد، وبين الغُلِّ والقيد سلسلةُ حديد، وهو يقول: إنَّما خلَق اللهُ الخَلْق بكُن، فإذا كانتْ مخلوقة، فكأنَّ مَخلوقًا خُلِق بمخلوق، ولئن أدخلت عليه لأَصْدُقنَّه، ولأموتنَّ في حديدي هذا؛ حتى يأتيَ قومٌ يعلمون أنه قدْ مات في هذا الشأن قومٌ في حديدهم[1].

وكذلك إمام آخر ثبت على الحق ، ألا وهو شيخُ الإسلام الهرويُّ طودًا راسيًا في السُّنة، لا يتزلزل ولا يَلين، وقدْ امتُحن مرَّات، وأُوذي، ونُفي مِن بلده، فثبَت وصابر.

قال ابنُ طاهر: سمعتُه يقول: عُرضتُ على السيف خمسَ مرَّات، لا يُقال لي: ارجع عن مذهبك ، لكن يقال لي : اسكُتْ عمَّن خالفَك ، فأقول: لا أسكتُ"[2].

3- القُدوة في العِزَّة والترفُّع عن حظوظ أهل الدُّنيا : جاءَ في ترجمة الخطيب البغداديِّ: أنه دخَل عليه بعضُ العلوية وفي كُمِّه دنانير، فقال للخطيب: فلانٌ يسلِّم عليك، ويقول لك: اصرفْ هذا في بعض مهمَّاتك،

---

[1] "سير أعلام النبلاء"، 12 /60- 61.

[2] -سير أعلام النبلاء 509/18

فقال الخطيبُ: لا حاجةَ لي فيه، وقطَّب وجهه، فقال العلويُّ: كأنك تستقلُّه، ونفض كمه على سجادة الخطيب، وطرَح الدنانير عليها، فقال: هذه ثلاثمائة دِينار، فقام الخطيب محمرًّا وجهه، وأخذ السجَّادة، وصبَّ الدنانير على الأرض وخرَج من المسجد، وحرَكة نفض السجادة التي لم تستغرقْ دقيقةً واحدة من الخطيب رَبَّتْ أتباعَه الذين كانوا في المسجد على معاني العِزَّة، وحقارة العبودية لغير الله، ظهرتْ في قَوْلِ أحدهم: ما أنسى عِزَّ خروجِ الخطيب، وذُلَّ ذلك العلويِّ وهو قاعدٌ على الأرض يلتقط الدنانير مِن شقوق الحصيرِ ويَجمعها1.

وهاكَ موقف لأحدِ علماء الأزهر يبيِّن مدَى عِزَّته بإسلامه، ولا يُبالي بأحد خالفه:

لَّما قدِم السلطان عبد العزيز مصر وزار الجامع الأزهر وصحبه الخديويُّ إسماعيل، فلحظ الخديويُّ على شيخ بالجامع كأنه غير مهتم، فهو مسندٌ ظهرَه، مادٌّ رجلَه، فأسرع بالسلطان عنه، ثم كلَّف أحد رجاله – وقد أراه الشيخ – أن يذهبَ له بصُرَّة، يريد أن يعرِف حاله، فلمَّا جاء الرسولُ ليعطيه قبَض الشيخ عنه يده، وقال له : قلْ لَمن أرسلك : إنَّ مَن يمدُّ رجله لا يمدُّ يدَه2.

4- القُدوة في الورَع: هذا هو الحافظُ عبدالعظيم المنذري صاحبُ "مختصر صحيح مسلم" يُعطي درسًا عمليًّا في الورَع لصاحبه الحافظ الدمياطيِّ، فقد خرَج مِن الحمام وقد أخذ منه حرُّها، فما أمكنه المشي فاستلقى على الطريق إلى جانبِ حانوت، فقال له الدمياطي: يا سيِّدي، أنا أقعدك مسطبةَ الحانوت – وكان الحانوت مُغلَقًا – فقال وهو في تلك الشدَّة: بغير إذنِ صاحبها كيف يكون؟ وما رضِي3.

---

[1] "سير أعلام النبلاء"، 18 /278.

[2] – زهر البساتين من مواقف العلماء الربانيين 485/1 للدكتور العفاني ، والسلطان عبد العزيز هو ابن السلطان محمود الثاني ابن السلطان سليم الثالث ، وُلِد عام 1830م وتوفي عام 1876م ، وانسلختْ على أيامه رومانيا والصرب والبلغار ومِصر عن الإمبراطورية العثمانية .

[3] "طبقات الشافعية"، لتاج الدين السبكي، 8 /260 – 261.

وقصَّة أختِ بِشر الحافي مع أحمد – الدالَّة على ورَع السادة الأماجد من سلف هذه الأمة – مسطورةٌ في كتُب التاريخ.

قال المرُّوذيُّ: سمعتُ أبا عبد الله ذكَر أخلاق الورعين، فقال: أسأل الله ألَّا يمقتنا؛ أين نحن من هؤلاء؟!!

المبحث الرابع: القُدوة الحاضرة الغائبة:

القُدوة في التربية هي أفضلُ الوسائل وأقربها إلى النجاح؛ لأنَّ كلَّ وسيلةٍ تظلُّ حِبرًا على ورق ما لَم تتحوَّل إلى حقيقةٍ واقعةٍ تتحرَّك في واقع الأرض، وسلوك بارز يُترجِم الأفكار والمشاعر.

ومِن هنا تتبيَّن ضرورةُ اهتمام الأبوين وكلِّ مُربٍّ بتربية من يعتني به ويَرعاه وينشئه على الآداب الإسلاميَّة، على أنْ يكونَ الأب والمربي قُدوةً حسَنةً، وأسوةً صالِحَةً فيما يغرسه من مبادئَ وأخلاقٍ في نفْس الطفل، وإلا فإنَّ جهودكم – أيها الآباء – ستبوء بالفشل والندم؛ ففاقدُ الشيء لا يعطيه.

وإنَّ أهم الصفات التي ينبغي أن يتحلَّى بها المربِّي: الصبر، والمتابعة، وعدم اليأس.

فعلى الأبِ أو المربي أن يتحلَّى بمكارمِ الأخلاق والعادات الحسَنَة؛ فظهور المربي بمظهر الصِّدق، والأمانة، وحُسن المنطق , وحُسن الخُلق ، له أكبرُ الأثر الإيجابي في نفوسهم؛ فكيف يَقبل طالب من معلِّم حثَّه على الصِّدق والوفاء بالوعد ، وهو يكذِبُ في حديثه، أو يَعِدهم، ولا يُوفي؟! فأداء الصلاة أمامَهم , والتوضؤ أمامَهم، من شأن ذلك أن يطبَعَ في أذهانهم تلك العبادةَ بهيئاتها .

وأمَّا أول ما يَبدأ المربِّي في غرسِه في نفوسِ مَن يأخذون عنه، فـــ:

أ. أركان الإيمان: مِن الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدَر، خيره وشرِّه ؛ وتَسهيل الأمر إلى مستواهم، مع ضرْب المثال، والتَّكرار.

ب. الأحكام المتعلقة بأهمِّ العبادات، كالصلاة، ومعها الوضوء، وكذا آداب الطَّهارة، والحثّ على النظافة .

ج. الآداب العامَّة: مِن الكلمة الطيبة واجتناب الألفاظ السيِّئة، وحب الوالدين, واحترام الكبير، والإحسان إلى الصَّدِيق، إلى غير ذلك .

د. التحذير من الأمور السيئة، كالسبِّ والشتم والكذب؛ والاعتداء على الآخرين ... إلخ.

إنَّ توعيةَ الطفل وتصحيح سلوكياته، أو توضيح خطأ بَعضِ سلوكيات الآخرين – مهم، وكذا تعليم الطفلِ ما له وما عليه مِن حقوق وواجبات من ضوء ما ورَد في كتاب الله، وسنَّة رسوله – صلَّى الله عليه وسلَّم – خاصة إذا قُرنت بموقف مِن مواقف سلوكه أو سلوك الآخرين.

ولا بدَّ أن يفهم الطفلُ أنه عندما يعمل خيرًا أو يُقدِّم شيئًا ليس فقط لغرَض الكسب مقابلَه، بل إنَّه يفعل ذلك؛ لأنه يفترض أنْ يَعملَه، فإن أثابه عليه الآخرون كان جيدًا، وإنْ لم يُثيبوه عليه، فإنَّ الله يراه وهو يُثيبه عليه.

كذلك على الأبوين تَصحيحُ نظرةِ أطفالنا لله – سبحانه وتعالى – وذلك مِن خلال ذِكر أسماء الله، وتفسير كلِّ اسم، وماذا يحمل من صفاتٍ ومَعانٍ، فالطفلُ لا يعلم إلَّا ما نُمليه عليه نَحن.

ونظرةُ الطفل لله تكون في هذه الحدود، فهنا مِن المهم أن نُعلِّم الطفلَ كيف يُحِب الله، وأنْ يعمل ما يعمله؛ لكسب رضا الله، ثم يتجنَّب عقابه، ومهمٌّ هنا أن نوضِّح أنَّ الله أيضًا غفور رحيم لزلَّاتِنا ولأخطائنا وغفلاتنا، وأننا ندخُل الجنة – إن شاء الله – برحمتِه، وليس بأفعالنا فقط.

المبحث الخامس: مسؤولية القُدوة وحماية مكانته تجاه الفرد والمجتمع:

لا بدَّ من حماية القُدوة ؛ لأنها تؤثِّر في قطاع كبير من الناس، فهي محرِّك نفسي عظيم في المجتمع، لا يقلُّ دوره عن باقي العوامل المشاركة في بنـــية المجتمع وتقدُّمه، فحينما نضَع أمام المجتمع الشخصيات الصالحة والناجحة ليقتديَ بها الناس، فسيعود ذلك على المجتمع بتأثير إيجابي كبير، فيكثر

الصالحون، والعلماء والناجحون، ويقوى المجتمع ويتقدَّم؛ وحينما تكون القُدوة مِن أهل الفساد والسفهاء والفساق وأهل المجون؛ فسيَكثُر الفساد، وتتربى الأجيال على شاكلةِ النماذج التي اتَّخذوها قُدوةً، فيزداد المجتمع ضعفًا، وتتسارع إليه عوامل الانهيار.

لذا؛ فمسؤوليةُ المجتمع كبيرةٌ في حماية مكانة القُدوة، وقصْرها على أهلها مِن الصالحين، ورفْض كل قُدوة سيئة وحماية الأجيال منها، فلا ينبغي – إذًا – أنْ نترُك تلك المكانةَ الشريفة ، والمنزلةَ الرفيعة لأهلِ الفساد يعبثون بها كما يشاؤون.

والموقفُ الإيجابي إزاء ما نراه من عبث بهذه المنزلة هو تفعيلُ عملية الإحياء لمكانةِ القُدوة الصالحة، وبذْل مزيدٍ من الجهد في إبراز قدوات الأمة الحقيقيِّين، من الأنبياء والصالحين، ومِن أهل الصلاح والتقوى، ومِن أهل الخير والنفع وتقديم الخِدْمات الجليلة للأمَّة، ومن أهل العلم في كلِّ مجال ، مِن دِين وطبيعة وطبٍّ، وإبراز صفاتِهم ومميزاتهم وهديهم بشتَّى وسائل المعرفة والاتصال بالناس، مِن كتب وصحُف، وبرامج وغيرها، ولا سيَّما تلك الموجَّهة إلى النشء.

وفي الوقتِ نفسه نجتهد في التحذير مِن تلك الجهات التي ترفَع من شأن المنحرفين، مِن صحُف ومجلات وقنوات ؛ حتى لا يتمكَّنَ أهل الفساد من الوصولِ إلى منزلة القُدوة في المجتمع، كما تُشير بذلك الآية الكريمة في قوله – تعالى –: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [البقرة: 124]؛ قال ابن جرير: {قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}: هذا خبرٌ مِن الله – جلَّ ثناؤه – عن أنَّ الظالم لا يكونُ إمامًا يَقتدي به أهلُ الخير؛ لأنَّ الإمامةَ إنَّما هي لأوليائه وأهلِ طاعتِه، دون أعدائه والكافرين به[1]...».

فإنَّ المسؤوليةَ حالة يكون فيها الإنسانُ صالِحًا للمُؤاخذة على أعماله، ومُلزمًا بتبعاتها المختلفة.

[1] – تفسير الطبري 511/2

قال الدكتور محمَّد عبد الله دراز – رحمه الله تعالى –: «تَعني المسؤوليةُ كونَ الفرْدِ مُكلَّفًا بأن يقومَ ببعض الأشياء، وبأن يقدِّم عنها حسابًا إلى غيره، وينتج عن هذا التحديد أنَّ فكرةَ المسؤولية تشتمل على علاقةٍ مُزدوجة مِن ناحية الفرد المسؤول، وعَلاقته بمَن يَحكمون على هذه الأعمال، والمسؤولية قبل كلِّ شيء استعدادٌ فِطري، إنَّها هذه المقدرةُ على أنْ يُلزم الإنسانُ نفْسَه أولًا، والقدرة على أن يَفي بعدَ ذلك بالتزامه بوساطةِ جُهوده الخاصَّة»[1].

المسؤوليةُ التي تهوءُ القُدوةُ بحَملِها أنواع، منها: ما يكون تُجاه ربِّه، ومجتمعه، ونفسه، فهناك مثلًا:

1- المسؤوليَّة الدِّينيَّة: وهي التزامُ القُدوة بأوامر المرء ونواهيه، وقَبوله في حالِ المخالفةِ لعقوبتها، ومصدرها الدِّين.

2- المسؤوليَّة الاجتماعيَّة: وهي التزامُ القُدوة بقوانين المجتمع ونُظُمه وتقاليده، وقيل: هي المسؤوليَّةُ الذاتية عن الجماعة، وتتكوَّن من عناصرَ ثلاثة، هي: الاهتمام، والفَهم، والمشاركة.

3- المسؤوليَّة الأخلاقيَّة: هي حالةٌ تمنحُ القُدوةَ القدرةَ على تحمُّلِ تبِعات أعماله وآثارها، ومَصدرُها الضمير.

وكلُّ مَسؤولية قبلناها وارْتضينا الالتزام بها، فهي مسؤوليَّةٌ أخلاقيَّة[2]:

ومسؤوليَّة القُدوة تُجاه المجتمع تتلخَّص في التالي:

أ- الالتزام بقانون الجماعة: وهذا يستلزمُ مِن الأفراد الالتزام بعَقيدة المجتمع الأساسيَّة، التي تُعَدُّ أمانةً اجتماعيَّة.

ب- التعاون مع الجَماعة في سبيلِ الخير العام: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى} [المائدة: 2] مِن إسهامِ الاقتصاد وغير ذلك.

ج- تقديم العمَل الصالِح والتنافُس في هذا السبيل: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [هود: 7]؛ حيث يَجب الإنفاقُ في سبيل الله، واستثمار الأموال، والاعتدال في الإنفاق، وغير ذلك مِن الجوانبِ الأخلاقيَّة.

---

[1] "دستور الأخلاق في القرآن"، بتصرف، ص138.

[2] "المسؤولية الاجتماعية والشخصية المسلمة"، للدكتور أحمد سيد عثمان، ص239.

د- نشْر العلم الذي يُسهِم في بناء المجتمع وتطويره، واستغلال الذَّكاء في هذا السبيل[1]:

والفَرْد القُدوة يُشعِر بمسؤوليته عن مُجتمعه؛ وذلِك أنَّه ما مِن تَقصير يقَع في هذا المجتمَع أو تَهاوُن أو تفريط في جنْب الله، إلَّا وهو يُصيبه بالهمِّ والغمِّ، وتعظُم المسؤوليَّة عليه؛ حتى يُنقِّي هذا المجتمع مِن حمْأة الرذيلة، وذلِّ المعصية.

الفصل الثالث: دور الأُسرة في تكوين القُدوة (الأمْن الأسري):

إنَّ النظامَ الأُسري قانون فِطري عام في جميع المخلوقات، فالحيوانات العَجماء تقوم حياتُها على نظامٍ أُسري غريزي، فطرَها الله - تعالى - عليه؛ ولهذا تَجد الأُنثى مِن الحيوان تَحبس نفسَها على وَلَدِها الجديد، تَحرُسُه وتغذيه بالوسيلةِ التي فطَرها الله عليها وأتاحها لها، وتُنظِّف جسمه كذلِك، وإذا كان في حاجةٍ إلى مكان أمين يَحتمي به مِن العاديات، صنعَتْ له ذلِك صنعًا عجيبًا يُناسبه، كالعُشِّ الذي تستمرُّ الطيور - إناثًا وذكورًا - زمنًا غير يسير تَجمع موادَّه وتُحْكِم بناءَه، وقد يكون المناسب له جحرًا في الأرض، أو ثُقبًا في خشب، أو شقًّا في صخْر، فتجد كلَّ حيوان يصنع لأولادِه المنزل الآمن الذي يناسبه، مع شِدَّة حراسته والعناية بتغذيته والنظام الأسري أشدُّ ضرورةً للبشر من سائر الحيوانات، وبخاصة في رعاية الطفل الذي تطول مُدَّة طفولته أكثر من أي حيوان آخر، وحاجته إلى الرعاية والعناية أعظمُ من أيِّ حيوان؛ لما يترتب عليها من عمارة الأرض عمارةَ خير وصلاح، كما أن الإنسان لا تستقيم حياته دونَ أسرة، يعرف فيه الأبَ والأم والأقرباءَ، من ابن وأخ وجَدٍّ وغيرهم؛ ليحصل بينهم التكافُل؛ ولهذا كان حفظُ النَّسَب مِن الضرورات التي اتَّفقت عليها أممُ الأرض، وإنْ خرَج بعضها على ذلك شذوذًا، وإذا كان قدْ وُجِد في الأناسي مَن شَذَّ عن هذه الفِطرة، بوضْع تصوُّر يدعو فيه إلى عدم اعتبار ضرورةِ الأُسرة - كما هي الحال عند الشيوعيِّين - فإنَّ ذلك لا يؤثِّر فيما تواطأتْ عليه فِطرةُ الأمم والأجيال، وفساد فِطر بعض مَن اجتالتهم الشياطين، وشذوذهم عن تلك الأمم يَجعل هذا الشذوذَ وهذا الخلل محصورًا فيهم؛ لفسادِ فطرهم.

[1] "موسوعة نضرة النعيم"، جزء 8، ص281.

فعلى الأُسرةِ أن تَجتهد في تَصحيح سلوكيات أبنائها، وغرْس المُثُل الإسلامية في نفوسهم، وتأصيل الأخلاق الحميدة التي جاءَ بها دِينُنا الحنيف، وليكُن الأبوانِ قُدوةً حسنةً لأبنائهما، فلا يكون هناك تناقُضٌ بين ما يُمارسانِه من سلوك عملي، وبين ما ينصحانِ به أبناءهم في ظلامٍ وكلام نظري.

وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الْفِتْيَانِ فِينَا = عَلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ

وإنَّها لمسؤوليةٌ عظيمةٌ أن يبني الأبوانِ شخصية أبنائهما على أساسِ العقيدة الصحيحة، والاعتزاز بمبادئهم وتُراثِ أمَّتهم، مُحاطين بالإيمان والهدى والخير والفضيلة، أقوياء في مواجهةِ المؤثِّرات المحيطة بهم، لا يَنهزمون أمامَ الباطل، ولا يَضعُفون أمامَ التيَّارات الفِكريَّة الزائفة.

المبحث الأول: صورة القُدوة في عيون أطفالنا (أبطال الكرتون):

معلوم أنَّ الأطفالَ يُنشَّؤون في سنواتهم الأولى، وهم يَنظُرون ويشاهدون أكثرَ بكثيرٍ ممَّا يقولون أو يفكِّرون، وهذا ما يُسْهِم في طبْع الصور والشخصيات في عقلهم الباطن كقُدوةٍ يرغبون في تقليدِها، وما إنْ يبدأ الأطفالُ في القُدرة على الحركة أو الكلام أو التصرُّف، حتى نجد تلك الصور العالقة في ذِهنهم، وقد طفَتْ على السَّطح، وباتت تؤثِّر في تصرفاتهم؛ لذلك فإنَّنا نجد أنَّ الدراساتِ النفسيَّةَ والتربويَّةَ - كما يقول علماء التربية - تَحرِص كثيرًا على توصيةِ الأهل بإيجاد بيئة ملائمة لنموِّ الأطفال، مِن هدوء وسكينة؛ لئلا يُصابوا بالعصبية، وأن يُبعدوهم عن مشاهدِ العنف؛ لئلَّا يتأثروا بها فيُقلِّدوها، ملم قد يَتسبَّب لهم في أذًى كبير، والصغار يبدؤون التقليدَ مِن السنة الثانية أو قبلها بقليل، وهم يتعلَّمون بالقُدوة والمشاهدة أكثرَ ممَّا نتصوَّره، فالطفل يُحاكي أفعالَ والدِه، والطفلة تُحاكي أفعالِ أمِّها.

تقول إحدى الباحثات: "إنَّ برامج الأطفال - الكرتون - هي في أغلبها ليستْ إلَّا مصدرًا للعنف؛ لأنَّ ما يميزها التمحور حول الصِّراع، والحرب، والشر، والتهديد، وتغليب مفاهيم القوَّة على مفاهيم الضعف، فالنتيجة سيطرة السلوك العدائي على سلوك أطفالنا، وخاصَّة أطفالَنا في عُمر السنتين وما فوق، ففي هذا الجيل يُحاول الطفلُ التقليدَ، ويتعلم قواعِدَ السلوك، ويَميل إلى

عَلاقات المحبة والمودة، فالجديرُ بنا كأهلٍ تأكيد ودعم الصفات الخاصة بالحب".

حينما نسأل أنفسَنا: ماذا يتعلَّمُ أطفالنا من أبطالٍ الكرتون؟

نقول: إنَّ الرسوم المتحرِّكة مِن أوائل العناصر التي يتعلم الطفل من خلالها، خاصةً أنَّه – في ظل كثرة القنوات التلفزيونية وزخم بثِّها لبرامج الأطفال – أصبحت ساعات البث تقريبًا على مدار الساعة، وأصبَح من الصُّعوبة بمكان إقناعُ الأطفال بالجلوس لساعاتٍ محدَّدة أمام التلفاز.

المتابع لبعض أفلام الرسوم المتحرِّكة، يَجد أن هذه الأفلام لا ترتقي إلى المستوى المطلوب مِن حيث اللغةُ والتصرفات والأخلاق التي نطالب أطفالنا بامتلاكها، أو امتلاك الحدِّ الأدنى منها، بلْ نجدها أفلامًا تكرس العديد من العادات السلبيَّة والألفاظ السوقيَّة، والأخلاقِيَّات المنافية لتعاليم دِيننا الإسلامي وعاداتنا وتقاليدنا العربية.

ولو حاولنا رَسمَ خطوط عريضة للقُدوة الموجودة اليوم في عيون أطفالنا، لاستطعنا تَحديدَها في عدة نقاط، أهمها:

1 – أن القُدوة الحسَنة لديهم لا يبدو كبيرًا في العمر، وهو أقربُ إلى أعمارهم.

2 – أنه شخصيةٌ كرتونية في الغالب، أو شخصيةٌ بشرية خيالية.

3 – تتمتَّع هذه الشخصية بالقدرة على التعامل مع التكنولوجيا بتمكُّن، من خلال السيطرة على مجريات الأمور، أو اختراق الحاجز الزَّماني، أو المكاني، أو الدخول إلى عوالم خيالية إلكترونية.

4 – هذه الشخصية تتمتَّع بقوَّة خارقة، كأَنْ تستطيعَ القفز مسافات طويلة، أو الاختفاء، أو الطيران، وغيرها.

5 – أن تتمتَّع هذه الشخصية بقوة هائلة، عبر القوة العضلية، أو حملها لأسلحة فتَّاكة.

6 - وفي حالاتٍ أخرى، تكون هذه الشخصية المرسومة في ذِهن الأطفال رقيقةً ومسالمةً وهادئة.

" وهناك بعضُ النصائح التي يُمكن اللجوء إليها ، ذَكَرها بعضُ الباحثين لمعالجة هذا الأمر:

1- تحديدُ ساعات مشاهدة أبنائنا للتِّلفاز في أوقاتٍ مُعينة، نَختار من ضمنها برامجَ هادفةً، بعيدة عن التشويه، كالبرامج الكرتونية العربية، أو على الأقل بعض البرامج الأجنبية التي تَهدِف للثقافة أكثرَ مِن الإثارة والتشويق.

2- تعليم أبنائنا مبدأَ النقد الموجَّه لما يرونه، ما يربي فيهم عدمَ الانبهار، أو تصديق كلِّ ما يُشاهدون، والإشارة إلى بعض التصرفات السلبية التي يقومون بها، ونقْدها.

3- مناقشة أبنائنا أحيانًا فيما يُعرَض على الشاشة، من أفلام كرتون وغيرها، وتربية مبدأ المحاكاة العقلية، والتفكير بما يُعرَض.

4- تَنمية القُدوة الحسَنة للشخصِيَّات الإسلاميَّة والتاريخيَّة المهمَّة، ومقارنة النِّقاط الإيجابية فيهم بالنقاط السلبية الموجودة في الأبطال المعروضين على الشاشة.

5- عدَم ترْك الطفل يشاهدُ البرامجَ المحدَّدةَ له وَحْدَه، بل يفضِّل الجلوس معه خلال هذا الوقت؛ لمتابعة ما يشاهده باستمرار، وتوضيح بعض النقاط الجديدة فيها"[1].

المبحث الثاني: أطفالنا بين غِياب القُدوة وتفريط الراعي:

يأخُذ بقلبي رُؤية طفل بكلِّ براءته التي فطَره الله عليها، ولكن هيهات أصبحتْ رُؤية هؤلاء نادرة أو قليلة، فقدِ اغتلنا تلك البراءة، وشوَّهنا معالِمَها

[1] بتصرف من مقال متميز منشور على الشبكة http://almoslim.net/node/83026

بأمورٍ كثيرة قد يكون أقلها: الهيئة، واللباس، واتِّباع الموضات، وتقليد الغرب، ومحاكاة أفعالهم.

لذا حينما نعرِض بعض النماذج لإهمالنا وتفريطنا في تربية أطفالنا، وفَهم عالَمهم، والتعامل معه رُبَّما نعالج السببَ والمسبَّب للاغتيالاتِ المتكررة للراحلة براءة.

وهناك نماذج:

* أطفالنا جُلُّهم - إن لم نقل: كلُّهم - يَكذِبون! كيف تعلَّموا الكذب، وكيف عرَفوا تزييفَ الحقائق وقد وُلِدُوا على الفطرة.

* من الأطفال من يتلفَّظ كثيرًا بألفاظٍ نابية أو بذيئة، ولا يَجدون من يَمنعهم أو يوجههم، بل يُقابَلون بالابتسامة، والإعجاب على الفصاحة وطلاقة اللسان، ولو بسيِّئ الألفاظ.

* البَعض الآخر من أطفالنا تعلَّقت نفوسُهم بسماع الغِناء، ومتابعة المسلسلات؛ مَن السببُ؟ وكيف تعوَّدوا عليها؟ ومَن علَّمها لهم؟ ومَن عوَّدهم عليها؟ ومَن وجَّههم إليها؟ ومَن ربَّاهم؟ ومن أدَّبهم وحفِظهم عما يخدش براءتهم؟!

* بعض الأطفال قد يُنعم الله عليهم في مقابل فسادِ أهليهم أو إهمالهم بمعلِّمين ومُعلمات صالحين وصالحات، ويؤدُّون أدوارَهم التربوية والتعليمية على أكمل وجه، وبطبيعة الأطفال وفطرتهم يتقبلون ويتحمسون لما يغرس في نفوسهم وعقولهم الغَضَّة، ولكنَّ المشكلةَ تكمُن في عودتهم لمنازلهم، ورُؤيتهم المتناقضات بين ما تعلموه من خلق ودين وعلم، وبين ما يرونه من أهليهم من تَجاوز وتَعدٍّ لكل ما غرس معلموهم في أنفسهم، وأنَّه يجب الوقوف عنده، وعدم تجاوزه، وطبعًا هم يرون والديهم قدوتَهم ومثلهم الأعلى، فبهذه التناقضات يعيش الطفل في دَوَّامة ومتاهة لا أولَ لَها ولا آخر، متذبذب حائر، لا استقرار لتفكيره، ولا ثقة ولا اطمئنان لمن حوله.

فالمسؤولية منوطةٌ بالجميع، والنبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – يقول: ((وما مِن راعٍ يَسْترعيه اللهُ رَعيةً يَموتُ يومَ يموتُ وهو غاشٌّ لرعيتِه، إلَّا لم يَرُحْ رائحةَ الجَنَّة))[1].

المبحث الثالث: أين أثرُك أيها الملتزم القُدوة؟

سؤال يسأله كلُّ مسلم غيور، وليعلم أنَّ كل مَن سار على الأرض وترَك أثرًا وعلامة تدلُّ على مروره على هذه الأرض، فإنَّه يشهَد له، فإن سرتَ على الرمال بدَت آثار قدمك، وإن تجولت في حديقة، ظهرتْ علامات طريقك.

وكُن رَجُلًا إنْ أَتَوْا بَعْدَه يَقولُونَ مَرَّ وَهذا الأَثَرْ

ولنا اليوم أنْ نتساءل: لك سنوات تتعلَّم العلم، فأين أثر علمك؟ ولك سنوات تصلِّي وتصوم، فأين الأثر في النَّفس والجوارح؟ ولقد قرأتَ كثيرًا، وحِفظت كثيرًا عن برِّ الوالدين وحُسن المعاملة، فأين النتيجة؟ ومِن أعظم الأعمال أجرا، وأكثرها مرضاة للرب عز وجل تلك التي يَتعَّدى نفعها للآخرين؛ وذلك لأنَّ نفْعَها وأجْرها وثوابها لا يقتصر على العامل وحدَه، بلْ يمتدُّ إلى غيره من الناس .

فالمسلم مأمورٌ بتعلم دِينه، وحَثِّ الناس على الخير، وأن يكون قُدوةً حية لغيره مِن زوجة وولد وبنت وجيران، فأين أثرُ الملتزمين في دُنيا الناس؟! ما زلنا نرَى العقوق في أوساط الشباب، والخنا والميوعة غالبةعلى النساء، فأين أثَر مَن تعلَّم حتى يُعلِّم؟! وأين توجيه القدوات في زمن قَلَّ فيه المعين على الخَيرات.

فالدعوة تحتاجُ إلى قيام وجهد وتعب ونصب، ولكن عندما تَعلم ما تُثمره مِن هذا، تحَمَّست أكثرَ، إذا اهتدى أحدٌ على يديك يأتيك كل شيء يعمله مِن خير، يأتيك أجْرُه حتى بعد مماتك، فما بال الملتزم عن الدَّعوة معرضٌ، ولغيره لم يرشد، نَحتاج كتائِبَ من الملتزمين؛ لكي يقوموا بواجِبِهم في الدعوة إلى الله تعالى.

---

[1] رواه مسلم في صحيحه 142، والدارمي في سننه 2838، وابن حبان في صحيحه 4495 عن معقل بن يسار رضي الله عنه.

قال تعالى : {وما تقدموا لأنفسكم من خيرا تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا} [المزمل :20].

وقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لعليٍّ بن أبي طالب : ((والله لَأَنْ يَهديَ اللهُ بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك مِن حُمْرِ النَّعَم))[1].

المبحث الرابع: دور المنزل في تربية الطفل المسلم (القُدوة):

إنَّ مَن أراد بناء أسرة إسلامية ينشأ عنها جيلٌ صالح – عليه أن يُعْنَى قبل ذلك باختيار الزوجةِ ذات الدين، والخُلُق الكريم، والمنبَت الحسن؛ حتى تسري إلى ذلك الجيل عناصرُ الخير، وصفاتُ الكمال؛ قال نبينا – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((تُنكَحُ المرأةُ لأربعٍ: لمالِها، ولحَسبِها، ولجَمالِها، ولدِينِها، فاظفرْ بذات الدِّينِ، تَربتْ يداك))[2]؛ لذلك فعلى الرجل ألَّا يكون هَمُّه الاقتران بامرأةٍ ذات جمال، دون مبالاةٍ بدِينها وأخلاقها، فإنَّ ذلك منغِّصٌ، للحياة هادم لها، مسبِّب للفراق؛ لذلك فإنَّ حسن اختيار الأم والأب ينشأ عنه صلاحُ ذلك الجيل الناشئ عن تلك الأسرة، فكلُّ مولودٍ يُولَد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه – كما ورَد في الحديث[3].

وإنَّ مرحلةَ الطفولة مرحلةُ إعدادٍ وتدريب وتربية؛ ومِن أجل ذلك حَثَّتِ الشريعة الغراء على أمور، منها:

1 – تَعليمُ الأطفال كلَّ ما يعود عليهم بالنَّفْع في الدِّين والدنيا، وتلقينهم الشهادتين.

2 – غرْس مَحبَّة الله ورسوله وصحابته في قلْبِ الطفل.

3 – تشجيعه على حِفظ القرآن سورةً سورةً، ومكافأته عندَ الانتهاء من حفْظِه.

4 – أمْرُه بالصلاة عند بلوغِه سبعَ سنين.

---

[1] – رواه مسلم في صحيحه 2406

[2] متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[3] – رواه البخاري في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه.

5 – تعليمه الطهارةَ والوضوء، وتعويدُه على الصدق، والأمانة، والبر، والصلة، ومكارم الأخلاق.

6 – إبعاده عن مجالس السُّوء، واللهو، والمنكرات.

7 – تعليمه الأدب الحسَن، وكما يقول أحدُ السلف: ما نَحَل والدٌ ولدَه خَيْرًا من أدبٍ حسَن.

8 – تجنيبه كلَّ ما يُفسِد الدِّين والبدن والأخلاق.

9 – تدريبه على الشجاعة، والإقدام، والإخلاص في العمل.

10 – تدريسه حياةَ العظماء والصالحين والأبرار؛ ليقتديَ بهم.

11 – عرْض بعض قصص الأنبياء مع قومهم، وكيف لاقوا العنت، والتكذيب، رغمَ وجودِ الأدلة الواضحة.

12 – تشجيعه على حِفظ بعض الأحاديث النبويَّة القصيرة، والواضحة المعنى، والمتضمِّنة لمكارم الأخلاق[1].

إنْ قمنا بتعليمِ الأولاد هذه الصِّفاتِ، نشأ لنا جيلٌ صالح في نفسه، وقُدوة لغيره.

[1] بتصرف من "مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة"، تأليف: عدنان باحارث، ص 148 – 152.

الفصل الرابع

القُدوة والتعليم

المعلِّمون هم حماةُ الثغور، ومربُّو الأجيال، وعمَّار المدارس، المستحقُّون لأجْر الجهاد، وشُكر العباد، والثواب من الله يومَ المعاد؛ ولذا فيجب على المعلم أن يكونَ قُدوةً، وأن تكون المدرَسة أو المكان الذي يتعلم فيه النَّشْءُ والصغار مَحَلَّ عناية واهتمام؛ حتى ينتفع هذا الجيل، وذلك النشء بمعلِّميهم وقدواتهم.

ولهذا ينبغي للمعلم أن يُرِيَه من الخصال الطيبة، والصفات الحسنة – ما تَجعله يتحلى بها، وعلى أقلِّ تقدير يُجِلُّ أهلها، ويرفع من شأنهم، وأن يعملَ بما يأمر به الطلاب من الآداب والأخلاق وغيرها من العلوم، وليحذر مُخالفةَ قوله لفعله، وليسمع قول الله – تعالى –: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: 2]، وهذا إنكارٌ على مَن قال قولًا و لم يعمل به.

"فالمُعلِّم كبيرٌ في عيونِ طلَّابه، والطلاب مولَعون بمحاكاته والاقتداء به، لذلك كان لزامًا على المعلِّمين أن يتصفوا بما يدعو إليه العلمُ من الأخلاق والأعمال، فهم أحقُّ الناس بذلك وأهلُه ؛ لِمَا تميَّزوا به من العلوم التي لم تحصل لغيرهم، فإن كانوا أثَّروا في طلابهم، وانطبع مِن تحت أيديهم على أخلاق متينة، وعزائمَ قويَّة، ودِين صحيح .

وإنَّ المعلم لا يستطيع أن يربي تلاميذه على الفضائل إلا إذا كان فاضل، ولا يستطيع إصلاحَهم إلا إذا كان بنفسه صالحًا؛ لأنَّهم يأخذون عنه بالقُدوة أكثرَ مما يأخذون عنه بالتلقين.

ولقدْ كان السلفُ الصالح يستعينون بالعملِ على العِلم؛ لأنَّ العلم إذا عُمِل به نما، واستقرَّ، وكثرت بركتُه .

وإذا تُرِك العمل به ذهبَت بركتُه، وربما صار وبالًا على صاحبه، فرُوح العلم وحياته، إنما بالقيام به عملًا، وتخلُّقًا، وتعليمًا، ونصحًا"[1].

[1] – مع المعلمين للشيخ محمد إبراهيم الحمد ص 19.

قال الإلبيري رحمه الله في العلم :

وَإِن أُوتيت فِيهِ طَوِيلَ بَاعَ ... وَقَالَ النَّاس إِنَّك قدْ سبَقْتَ

فَلَا تأمَنْ سُؤالَ اللهِ عَنهُ ... بتَوبيخٍ عَلِمْتَ فَهَل عَمِلْتَا

فرأسُ الْعلمِ تقْوَى اللهِ حَقًّا ... وَلَيْسَ بِأَن يُقَال لقدْ رَأستَا

إِذا مَا لم يُفِدْكَ الْعلمُ خيرًا ... فَخيرٌ مِنْهُ أَنْ لَوْ قدْ جَهِلْتَا

وَإِن أَلْقَاك فَهمُك فِي مَهاوٍ ... فليتَك ثمَّ ليتَك مَا فهمتَا[1]

قال الخطيب البغدادي رحمه الله : «فإنَّ العلم شَجَرة، والعملَ ثمرة، وليس يُعدُّ عالمًا مَن لم يكن بعِلمه عاملًا»[2].

وهاك وصيةً للمعلمين من مُعلم أفنى عمره في صُنع المجد لأمته، وتربية أجيال واعية تقاوم المستعمرَ الباغي ؛ قال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله : «ثم احرِصوا على أن يكونَ ما تُلقونه لتلامذتكم من الأقوال منطبقًا على ما يَرونه ويَشهدونه منكم مِن الأعمال؛ فإنَّ الناشئَ الصغير مرهفُ الحس، طُلَعَةٌ إلى مِثل هذه الدقائق التي تَغفُلون عنها، ولا ينالها اهتمامكم، وإنه قوي الإدراكِ للمعايب والكمالات؛ فإذا زَيَّنتم له الصدقَ ، فكونوا صادقين، وإنْ حسنتم له الصبر، فكونوا الصابرين.

واعلموا أنَّ كلَّ نقش تنقشونه في نفوس تلامذتكم من غير أن يكون منقوشًا في نفوسكم، فهو زائلٌ، وأنَّ كل صبغ تنفضونه على أرواحهم مِن قبل أن يكونَ متغلغلًا في أرواحكم، فهو – لا محالةَ – ناصلٌ حائل، وأنَّ كلَّ سِحر تنفثونه؛ لاستتراهم غير الصِّدق، فهو باطلٌ.

ألا إنَّ رأس مال التلميذ هو ما يأخذه عنكم مِن الأخلاق الصالحة بالقُدوة، وأمَّا ما يأخذه عنكم بالتلقين من العِلم والمعرفة فهو رِبحٌ وفائدة»[3].

"وهنا أمور يسيرة جدًّا يُمكن أن تظهر مِن خلالها الأسوة، مثل:

1– غرْس ألفاظ وعبارات اعتياديَّة في ذهن الطالب:

---

[1] – ديوان أبي إسحاق الإلبيري ص 27

[2] – اقتضاء العلم العمل ص14

[3] – عيون البصائر للبشير الإبراهيمي ص291 نقلاً عن "مع المعلمين" للحمد

حيث يُعوِّد المعلِّمُ الطالب دائمًا على البَسملة قبلَ البَدْء، مع ذِكر خُطبة الحاجة، ثُمَّ إظهار الحوقلة عندَ الحزن والهم، وبيان الشُّكر اللفظي والفِعلي عند الفرَح والسرور، والتسبيح عندَ الاستغراب، والتكبير عندَ الإعجاب، وغيرها مِن الأشياء التي لا بُدَّ أن تتكرَّرَ أمام الطالب، فتؤدِّي إلى تعويد الطالب على تلك الألفاظ، وتدفعه لتعلُّم معناها، ويرَى الطالب في خِطابِ مُعلِّمه الألفاظَ القرآنيةَ والعباراتِ النبويَّةَ.

2- إلقاءُ السُّلام وردُّه من أعظمِ ما يَتعلَّمه الطالب:

قال رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((أَوَلَا أدلُّكم على شيءٍ إذا فَعَلتُموه تحاببتُم؟ أفْشُوا السَّلامَ بينكُم...))[1].

"وهذا الحديث فيه الحثُّ العظيم على إفشاء السلام، وبذْله للمسلمين كلِّهم، مَن عرفتَ ومن لم تعرِف، فلا يسلم على طالب يَعرِفه وآخر لا يُسلِّم عليه، والسلام أولُ أسبابِ التآلف، ومِفتاح استجلاب المودَّة، وفي إفشائه تكمُن أُلفة المسلمين بعضهم لبعض، وتَعوُّدُ الطلاب على إظهار شعارهم المميز لهم عن غيرِهم مِن أهلِ المِلل، مع ما فيه مِن رياضة النَّفْس والتواضُع، فيُلقِّن الطلابَ هذا الخُلُق، لا كالذي يدخل الفصل ولا يُسلِّم ولا يردُّ السلام، ويعامل الطلَّاب كأنَّهم بهائم، وهنا أيضًا إعظامُ حرمات المسلمين، وفيها لطيفةٌ أخرى وهي أنَّها تتضمَّن رفعَ التقاطع، والتهاجر، والشحناء، وفساد ذات البين التي هي الحالِقة، وأنَّ سلامَه لله لا يتبع فيه هواه، ولا يخصّ أصحابه وأحبابه به"[2].

3- تعليم الطلاب التواضع:

وكما قيل:

تَوَاضَعْ تَكُنْ كَالنَّجْمِ لاَحَ لِنَاظِرٍ

---

[1] رواه مسلم في صحيحه 54، وأبو داود في سننه 5196، والترمذي في سننه 2688 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] بتصرف من "شرح النووي على صحيح مسلم"، 36/2.

المتواضِعُ مِن طلاب العلم والعلماء هو أكثرُهم علمًا، كما أنَّ المكانَ المنخفض أكثرُ البِقاع ماءً.

والتجارِب تُثبِت والواقعُ يشهد: أنَّ مَن تواضع لله يرفعُه الله، ومَن تكبَّر واستعلى، صغَّره الله وحقَّره.

وأكثر الناس تواضُعًا معلِّم الناس الخير؛ أعني الرسولَ الكريم - صلَّى الله عليه وسلَّم - وتواضعه - صلَّى الله عليه وسلَّم - يتجلَّى في أكثرَ من موقف، منها مثلًا: أنه كان يقضي للناس حوائجَهم حتى كانت الجارية لَتأخُذ بيده - عليه الصلاة والسلام - فتطوف به في شوارع المدينة، وكان - عليه الصلاة والسلام - يَمرُّ على الصبيان، ويسلِّم عليهم، ويَمسح على رُؤوس صِبيان الأنصار تواضعًا منه، وحُبًّا لهم.

ووصفَه ربُّه - عزَّ وجلَّ - بقوله: {بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: 128].

4- نشْر الخير بين الطلاب بالأقوال والأفعال:

كان علماءُ السلف إذا تعلَّموا أمورًا أعطوها للناس بسلوكهم، وبتعاملهم، وأخلاقهم، ومناهجِهم في الحياة، والتاريخ أثبتَ أنَّ انتشارَ الإسلام في بقاعٍ مِن أسيا ورقاعٍ من إفريقيا - لَم يكن بجيوش ولا حشود، بلْ بأخلاق الإسلام التي كان يتعامل بها معهم تجَّارُ الإسلام.

لَيْسَ بَعْدَ الْيَقِينِ يَا عَيْنُ شَكٌّ = أَكَّدَ الْفِعْلُ مَا حَوَاهُ الْكَلاَمُ

أسلافنا مِن أصحاب الأخلاق الفاضلة خرَجوا إلى الشعوب الإسلامية في إندونيسيا وماليزيا، فبلَّغوا دَعوةَ الله بأعمالهم قبلَ أقوالهم، فإنَّا ندعوك أن تُقدِّم للشبيبةِ علمًا نافعًا، وعملًا صالِحًا، ورسالةً خالدةً، وكلامًا مؤثرًا، وأن تتقي الله - عزَّ وجلَّ - في هذا النشء، وهذا الجيلِ الذي ينتظر منك النصح، إنَّهم عطْشى أمامك، فاسكبْ على قلوبِهم مِن فيض حنانك وودِّك ما يكون بإذن الله بلسمًا شافيًا.

إنَّك تبني عقولًا ورِجالًا لخدمة المجتمع، تستطيع أنْ تؤثِّر في طلَّابك بما يخدم المجتمع في جميع المجالات بتعليمهم كيف يَستفيدون مِن أوقاتهم»[1].

المبحث الأول: المعلِّم والأمانة العظمى:

فالتدريسُ رسالةٌ ومسؤولية ينبغي أن تؤدَّى، وليس وظيفةً مقابل أجْر، وشخصية تضع نُصبَ عينيها أنَّ هذه المهنةَ هي مهنةُ الأنبياء والرُّسل، وأصحابها هم ورَثةُ الأنبياء، وهم الذين يرْفعون عن الناس الجهلَ، فيَنقلوهم من ظلماتِ الجهالة إلى نورِ العِلم والإيمان والمعرفة، وحسْب المعلمَ شرفًا أنه دالٌّ على الله – تعالى – يُرشِد الناس إلى الطريق الموصلة إلى خالقِهم وبارئهم، ويدلُّهم على معبودهم ورَبِّهم، والغايةِ التي من أجلها خُلِقوا، علاوةً على تعليمِهم الخُلُق القويم، والسبل التي تكفل لهم حياةً طيبة.

قال الشاعر:

الْعِلْمُ مِيرَاثُ النَّبِيِّ كَمَا أَتَى = فِي النَّصِّ وَالْعُلَمَاءُ هُمْ وُرَّاثُهْ

مَا خَلَّفَ الْمُخْتَارُ غَيْرَ حَدِيثِهِ = فِينَا فَذَاكَ مَتَاعُهُ وَأَثَاثُهْ

«فالأمانةُ العلمية زينةُ العلم، ورُوحه الذي يجعله زاكي الثَّمر، لذيذ المطعم.

وإذا قلَّبتَ النظر في تراجم رجال العِلم رأيت بين العالَم الأمين وقرينه غير الأمين بونًا شاسعًا، ترَى الأول في مكانةٍ محفوفة بالوقار، وانتفاع الناس منه في ازدياد.

وترى الثاني في منزلة صاغِرة، ونفوس طلبة العِلم منصرفة عنِ الأخذ منه أو متباطئة؛ فالرجل الذي يكون على جانب من العلم، ولا يتصرف فيه بأمانة حصينة، يرمُقُه الناس بازدراء، وتذهب ثقتُهم به، فلا يكادون ينتفعون بما يمكنهم أن ينتفعوا به من معلوماتِه الصحيحة.

ولَّما كان المعلم منبرِيًّا لتعليم الطلَّاب والإجابة عن أسئلتهم ، كان لزامًا عليه أن يأخُذَ نفسه بالأمانة العلميَّة؛ فإذا سُئِل عما يعلم أجاب بكلِّ أمانة

[1] "نصائح للمعلمين"، للشيخ المنجد، ص14 – 17.

ووضوح.

وإذا سئل عما لا يَعلَم توقَّف عن الإجابة بأن يقول: لا أدْري، أو لعلِّي أراجع المسألة، أو أتأكَّد منها، أو أسأل عنها، أو نحو ذلك»[1].

فالمعلِّم مسؤول، والمسؤولية في الإسلام تعني أنَّ المسلمَ المكلَّف مسؤول عن كلِّ شيء جعل الشرْعُ له سلطانًا عليه، أو قُدرة على التصرف فيه بأي وجه مِن الوجوه، سواء أكانتْ مسؤوليةً شخصية فردية، أم مسؤوليةً مُتعددة جماعية، فأمَّا المسؤولية الشخصية، فهي مسؤوليةُ كلِّ فرد عن نفسه وجوارحه وبدنه، رُوحه وعقْله، عِلمه وعمَله، عباداته ومعاملاته، ماله وعُمره، أعمال قلْبه وجوارحه، وهي مسؤوليةٌ لا يشاركه في حمْلها أحدٌ غيره، فإنْ أَحسن تَحقَّق له الثواب، وإنْ أساء باءَ بالعقاب.

روَى الترمذيُّ عن أبي بَرْزَةَ الأسلميِّ: أنَّ رسولَ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - قال: ((لا تَزولُ قدمَا عَبْدٍ يومَ القيامةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَن عُمُرِه فيمَ أفْناه، وعن عِلْمِه فيمَ فعَلَ فيه، وعنْ مالِه مِن أينَ اكتسبَه وفيمَ أنفقَه، وعنْ جِسمِه فيمَ أبْلاه))[2].

ولا شَكَّ أنَّ النظرةَ لهذا العمل على أنَّه رسالةٌ يُجازي الله عليها أفضلَ وأعظمَ مِن النظرة إليه على أنَّه أداءٌ لواجب وظيفي يَستوي مع واجب أي موظَّف آخر.

وممَّا ينبغي لنا أن نعلَمه أنَّ حضارة الغرب وثقافتها ومذاهبها المتعددة أفلستْ، وسوف تفصح عن ذلك إنْ عاجلًا أو آجلًا، وأنَّ الإسلام وَحْدَه هو الذي يستطيع أن يقوم بعملية الإنقاذ، وأن يُحقق كل ما تريده الإنسانية، والمشكلة الآن هي مشكلةُ الدعاة في كل مجال؛ فالمعلِّم في مدرسته وفي فصله لا بدَّ أن يكون داعية وقدوة.

فإنَّ الأمم اليومَ تَجتمع على مُحاربة الإسلام بكُلِّ الطرق والوسائل، واختلاف الأساليب التي تستهدف طمْسَ هُويةِ هذه الأمة ومَسخها، وهي

---

[1] - مع المعلمين للحمد ص 24

[2] رواه الترمذي في سننه 2417، وقال: حسنٌ صحيحٌ، وأبو يعلى في مسنده 7434، والدارمي في سننه 554، وصححه الألباني في المشكاة 3794.

مسلَّحة بالقوة المادية والعلمية والحضارية، ومِن أجْلِ ذلك، فإنه يَحتاج أن يكون كل مسلم داعيةً في مجال عمله، لا سيَّما والميدان فارغ، وهو بحاجة إلى مَزيد مِن الدعاة الأَكْفَاء الذين يشعرون بعِظم المسؤولية المنوطة بهم، ويشعرون بالمخاطرِ التي تُهَدِّد دِينَهم وأمتهم وعالمهم الإسلامي.

«إنَّ صاحبَ الهمِّ الذي يَحمل هَمَّ الأمانة التي استرعاه الله – عزَّ وجلَّ – عليها يتساءل دائمًا كيف أقوم بأداء هذه الرسالة، وهذه الأمانة على الوجه الذي يُرضي الله – عزَّ وجلَّ – عني؟ ويتساءل دائمًا كيف أكون معلمًا ناجحًا في حمْل أمانتي مؤديًا لها على الوجه الصحيح؟»[1].

المبحث الثاني: دَورُ المدارس في تنشئة القُدوة الصالحة:

فإنَّ للمدرسة دورًا عظيمًا في تنشئة الصغار؛ لكي يكونوا قُدوةً صالحة ينفعون أنفسَهم، ويعودون بالخير على أمَّتهم، وهي بيت الطالب الثاني الذي ينشأ فيها، وحينما يَكْبَر يتذكَّر ملاعب صباه فيها، ولا خير في دُورٍ للتعليم ومدارس لتربية الأجيال إذا لم تُؤتِ ثمارها، وتُعلِ من مكانتها بين أفراد المجتمع، والفرد الذي يتفوَّق غالِبًا ما يكون بسبب أنه أُحسن إليه في مدرسته، أو رُوعي الاهتمام به.

إنَّ مسؤوليةَ تربية وتنشئة القُدوة الصالحة، والأجيال الصاعدة، وإعداد النِّساء والرجال – مسؤولية عُظمى، وإنَّ قضية العناية بفلذات الأكباد، وثمرات الفؤاد مِن النشأ والأولاد قضيةٌ كبرى يَجب على أهل الإسلام أنْ يُولُوها كلَّ اهتمامهم؛ لأنَّ مقوِّماتِ سعادتهم – أفرادًا ومجتمعات – منوطة بها.

وَإِنَّمَا أَوْلَادُنَا بَيْنَنَا = أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ

ولذلك لا بدَّ من الإعداد لها أيما إعداد، رسمًا للمناهج، وإعدادًا للبرامج، وتوافرًا في الجهود، وتوليةً للأَكْفَاء؛ لتتمَّ المسؤولية التربوية سليمة من تعثُّر الخُطَا، بعيدةً عن التناقض والازدواجية، مُحاذرةً للتقليد والتبعية؛ اعتزازًا بشخصيتنا الإسلامية، وشُموخًا في مناهجنا الشرعية، متر ِّسمين هدي القرآن الكريم، ونَهج السنة النبوية.

---

[1] "نصائح للمعلمين"، للمنجد، ص 8.

إنَّ المدرسةَ هي الركيزةُ الكبرى، وعليها المسؤولية العظمى في بناء الفرد، وتقَع على كاهلها تحديد شخصيات الأبناء، وتكوين ملامحهم الإيمانية، والفكرية، والرُّوحية، والأخلاقية.

فيا أيُّها المعلمون والمربون، ربُّوا أولادَكم منذ نعومة أظفارهم على الإيمان بالله، واجعلوهم يستشعرون الأبعادَ الحقيقة لكلمة التوحيد؛ بحيث يكون إيمانهم نابعًا مِن يقين ومعايشة، وإدراك لحقيقة الربوبية والألوهية، وفَهمٍ واضحٍ لمعنى العبودية.

إنَّ كثيرًا من المدارس مع شديد الأسف لا تُعْنَى كثيرًا بتأصيل الفَهم العَقدي الصحيح، زاعمين أنَّ التوحيد من المسلَّمات البدهية التي لا تَحتاج إلى مزيدِ عناية، وتلك - وايمُ الله - من التسطيح في النظرة، ومن نتائجها توهين الأُسس العقدية الصحيحة في نفوس كثير من الأبناء.

كيف نقوم بنشْر الخير في المدارس؛ حتى ينشأ جيلٌ صالح؟

مِن أهمِّ الأُسس:

- إقامة الندوات للترغيب في فِعل الخير.
- فصْل البنين على البنات، ومنْع الاختلاط.
- تثقيف المدرِّس والاهتمام به؛ ممَّا يعود على المدرسة بالحب لها والولاء كذلك.
- جلْب المشايخ والدعاة لتثقيفِ الشباب، وتنمية أفكارهم في صُنع المعروف.
- تكثيف الأنشطة الثقافية، ومراعاة الخِدْمات الطلابية.
- الحِرْص على رفْع مستوى المدرسة بكلِّ ما هو جديد؛ ممَّا يساعد على سَعَة الأفق، وانتشار الثقافات.
- العمَل على رفع المعاناة عمَّن وقع عليهم ظلم، أو أُخِذ حقُّهم.
- تحقيق معنى الإخاء والتراحم بين أفراد المدرسة مدرسين وطلابًا.

المبحث الثالث: سِمات معلِّم التربية الإسلامية ودَورُه في تنشئة الصغار:

إن لمعلم التربية الإسلامية دور لا يقل أهمية عن مدرسي المواد الأخرى بل يفوقهم لأنه يغرس القيم والمثل بين الطلاب ، وله سِمات وصفات يعُرف بها " وكي يُحقِّق المعلِّمُ اليومَ وظيفتَه التي كلَّف الله بها الرسل، وأتباعهم، يَجب أن يتَّصف بصفات، مِن أهمها:

• أن يكونَ هدفُه وسلوكه وتفكيره ربَّانيًّا، كما صرَّح بذلك ربُّنا – سبحانه وتعالى – في كتابه العظيم: {وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ} [آل عمران: 3/ 79]؛ أي: تنتسبون إلى الربِّ – جل جلاله – بطاعتكم إيَّاه، وعبوديتكم له، واتِّباعكم لشريعته، ومعرفتكم لصفاته، وإذا كان المعلم ربانيًّا، استهدَف مِن كل أعماله التعليميَّة ودُروسه أنْ يجعَلَ طلابَه أيضًا ربَّانيِّين، يرون آثارَ عظمة الله، ويستدلُّون عليها في كل ما يدرسون، ويخشعون الله، ويشعرون بإجلاله عند كل عِبرة من عِبر التاريخ، أو سنة مِن سُنن الحياة، أو سُنن الكون أو قانون مِن قوانين الطبيعة، ومن دون هذه الصِّفة لا يُمكن للمعلم أن يحقِّقَ هدف التربية الإسلامية؛ لأنَّ عبادة الله كما رأينا يَجب أن تعمَّ نظرتنا إلى الكون، وأعمالنا كلها في الحياة وتفكيرنا كله.

• أن يكونَ مُخلصًا، وهذا مِن تمام صفة الربانية وكمالها؛ أي: ألا يقصد بعَمَله التربوي وسَعة عِلمه واطِّلاعه، إلاَّ مرْضاة الله، والوصول إلى الحقِّ، وإحقاق الحق؛ أي: نشره في عُقول الناشئين، وجعلهم أتباعًا له، فإذا زال الإخلاص، حلَّ محلَّة التحاسُد بيْن المعلِّمين، فيُصبح كل منهم يتعصَّب لرأيه أو طريقته، ويسودُ الغرور والأثرة عوضًا عن التواضُع للحقِّ وعن الإيثار، إيثار الحقِّ على الهوى.

• أنْ يكون صبورًا على معاناة التعليم، وتقريب المعلومات إلى أذهان الطلَّاب؛ لأَنَّ ذلِك يَقتضي مِراسًا وتَكرارًا، وتنويعًا للأساليبِ ومُكارَهَةٍ للنَّفْس على تَحمُّل المشقَّة، ولأَنَّ الناس ليسوا سواء في القُدرة على التَّعلُّم، فلا يستطيعُ المعلم أن يسايرَ هوَى نفْسه، فيتعجَّل رُؤية نتائج عمَله قبلَ

نُضج المعلومات في نفْس الناشِئ نُضجًا تُصبِح معه قابلةً للتطبيق العَمَلي، وقبلَ تطوير السُّلوك، وقبل أن تكتملَ القناعة عندَ الطلاب، تتحمَّس نفوسُهم وعواطفُهم، وتستثار انفعالاتُهم استثارةً كافيةً لتحقيقِ ما يتعلَّمونه في حياتِهم ومُجتمعهم، فتنهض به أمَّتهم.

• أنْ يكونَ صادقًا فيما يدْعو إليه، وعلامة الصِّدق أن يطبِّقَه على نفْسه، فإذا طابَق عِلمُه عمَله اتَّبعه الطلاب، وقلَّدوه في كلٍّ مِن أقواله وأفعالِه، أمَّا إذا خالَف عمله لما يدعو إليه، فإنَّ طلابه يُشعِرون بعدَم عزمه على تحقيق ما يقول، أو بعدَم إيمانِه بما يقول، أو بعدَم جدِيَّة أقواله.

• أنْ يكون دائم التزويد بالعِلم والدِّراسة له، داعيًا ربه بذلك، وقدْ رأينا كيف أمَر الله نبيه بالازدياد مِن العلم بقوله: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه: 114].

• أن يكون قادرًا على الضبْط والسيطرة على الطلَّاب، حازمًا، يضَع الأمورَ في مواضِعها، ويلبس لكلِّ حالة لبوسها، فلا يشتدُّ حيث يَنبغي التساهُل، ولا يتساهل حيث تَجب الشدَّة، وهذه مِن صِفات القائد، ولا غروَ، فهو قائدُ الفصل، به يَقتدي الطلابُ، وبأمْره يأتِمرون.

• أنْ يكونَ محبوبًا من الطلَّاب رَحيمًا بهم مِن غير تَفريط، حرِيصًا على مَصلحتهم، يُسامحهم أحيانًا دون أن يترُكَ لهم مجالًا للشَّطط والتراخي.

• أنْ يكونَ عارفًا بأساليبِ العبَث، والشغب عندَ بعض الطلَّاب، فلا تفوته، مُتنبهًا لكلِّ حركاتِ الطلاب ومقاصدهم"[1].

المبحث الرابع: دور المسجد وإمامه في تربية القُدوة:

فإنَّ المسجدَ له دورٌ عظيم في تربية الجِيل، وتنشئة الأفراد الصالِحين، وغرْس القيِّم ، والمثل والمبادئ الحسَنة بينهم ؛ إذ فيه تكون ال عبادة والذِّكر، والتضرُّع والخُضوع لله – جلَّ وعزَّ شأنُه – وبين جُدرانه نسمع ال تَّسبيح والتهليل والتَّكبير والتذلُّل بيْن يدي الله، والرغبة فيما عندَه مِن الأجْر الكبير.

[1] بتصرف من "أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع"، للنحلاوي ص 140-142.

{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} [الجن: 18]، وبين جنباتِه نرَى القائم القانِت، والمتهجِّد الصادق، والمرتِّل لكتاب الله والحافِظ له، والمستخرج دَقائق معانيه من بين دفتيه، في غوص وراءَ معانيه، وبحث لمفرداته واستنباط أحكامِه، واستخراج مخزوناتِه ومكنوناته مِن بلاغة وبيان وإعراب وقصص وغيرها.

والمسجدُ له وظيفةٌ في المجتمع ليس الأمر فيه قاصرًا على العبادة فحسبُ، بل فيه تأسَّستِ الدولة الإسلامية، وتكوَّن المجتمع الإسلامي الذي حمَل أعباء الرسالة وانطلق بها إلى مشارق الأرض ومغاربها، ففتح اللهُ به البلادَ وقلوبَ العباد، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقضي فيه جُلَّ وقته إمامًا ومعلِّمًا وداعيًا إلى الله، وقاضيًا، وقائدًا لمسيرة العمل الإسلامي.

«وهو مركزُ دعوةٍ، ومِنبر توجيه، فكمْ نوَّر قلوبًا، وعمَّر أفئدة، وأزال عنها أوضار الجاهلية وغبش المعاصي، وانتزع منها جذورَ الزَّيغ والضلال، وجعَل منها - بحوْل الله تعالى وقوَّته - أجيالًا مؤمنة، تقيَّة نقيَّة، مجاهدة صامِدة، قانتة مطيعة، عمرتِ الأرض بالطاعة والخير، ونشرتِ الإسلام في آفاقٍ واسعة، ونواحٍ عديدة من المعمورة، فكانت قرآنًا يمشي على الأرض؛ يُنير للناس مناهجَ الحق، ويَهديهم سُبل الرشاد، وسيوفًا مُصلتةً على رِقاب المتجبرين المتكبِّرين النافرين عن الحق، المصرِّين على الكفر والطغيان، ورُسل هِدايةٍ تغزو القلوب بالإيمان، وتغرس فيها بذور التقوى، وتقاوي الإصلاح وغراس الطاعة كلها؛ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء: 59] »[1].

"والمسجدُ له أثرٌ تربويٌّ في حياة الناس، فهو منطلق للجيوش وحرَكات التحرير؛ تَحرير الأمم والشعوب من العبودية للبشر، والأوثان والطواغيت؛ ليتشرَّفوا بعبوديتهم لله وَحْدَه، وقدْ كان المسجدُ مركزًا تربويًّا، يربِّي الناس على الفضيلة، وحبِّ العلم، وعلى الوعي الاجتماعي، ومعرفة حقوقِهم وواجباتهم في الدولة الإسلاميَّة، التي أُقيمت لتحقيق طاعة الله وشريعته، وعَدالته

[1] – وظيفة المسجد في المجتمع ص11

ورحمته بيْن البشر، فكان أنِ انطلق تعليم القراءة والكتابة؛ أي: البَدء بمحو الأمية من مسجدِ رَسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – وكان المسجدُ مصدرَ إشعاع خُلقي، يتشبَّع فيه المسلمون بفضائل الأخلاق، وكريم الشمائل، وحين تعصف بالمسلمين نكبةٌ، أو نازلة، يعتصمون ببيوتِ الله؛ ليرفعوا رايةَ الإسلام، وليجتمعوا على إعلاء كلمة الله[1].

"ويعدُّ إمامُ المسجد وخطيبه عِمادَ المسجد وقوَّته، به يؤدِّي المسجدُ رسالَتَه في نشْر الدعوة، وتوعية المجتمع، وتبصير الناس بأمور دِينهم، فإذا كان الخطيب عالِمًا قويَّ الشخصيةِ نافذ البصيرة عارفًا بعاداتِ الناس وأحوالهم، كان تأثيرُه جيدًا ومفيدًا في جماعةِ المسجد، وفي سكَّان الحي الذي فيه المسجد؛ يُعلِّمهم ويرشدهم، ويقودهم إلى كلِّ خير وفضيلة"[2].

وأمَّا دَوره: فهو داعيةٌ ومعلِّم وإمام، قائد لجماعة المسجد وأهل الحي ومَن يرتاد مسجده، فيجب أن يكونَ له في رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قُدوةٌ؛ فهو القُدوة الصالحة، والأُسوة الحسنة، والمَثَل الأعلى للأمَّة والقادة.

إنَّ الكلامَ لا يجاوز الآذانَ ما لم يُحوَّلْ إلى سلوكٍ صادقٍ وأفعال، مهْما أوتي صاحبُه مِن بيان، لقدْ طهَّر الأرضَ من أوزارِها منبرٌ واحدٌ ذو ثلاث درجات مِن خشب، لا قبَّة ولا باب، فلِمَ لا تُطهِّر الأرْضَ اليوم مِئاتُ آلاف المَنابِر، مزخْرفةً منقوشةً بقبابٍ وأبواب، أهِي الطَّبائع أم الزمان؟

يجيبُك الطنطاوي – رحِمه الله – على تساؤُله، بما مضمونه: لا ذاك ولا ذاك؛ بل لأنَّ القائمين عليها وعَّاظٌ مِن خشب بعباراتٍ من خشَب وسيوف من خشَب، والنتيجة نواحٌ مِن خُشُب واحدُها صار عديمَ الفائدة في كلِّ شيء، غير لحسِ المائدة، فانعكستْ وظائف الأعضاء.

يَشُمُّ مِن عَينٍ وأَنفٌ يسمعُ يَسْعَى على بَطْنٍ ورِجلٌ تدمَعُ

وفاقد الشيء لا يُعطيه، لا يطلب الثَّوب ممَّن جسْمُه عارٍ.

---

[1] "أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع"، للنحلاوي، ص 109 – 110.

[2] "إمام المسجد: مقوماته الخلقية والعلمية"، تأليف: سعود بن محمد البشر، ص 7.

فهل ترْضى بأن تكون واعظًا مِن خشب؟!

بل يجب عليك أن تكون صادقًا فيما تقول، سواء أكان ذلك في خُطبة الجمعة أو في حَلْقة الذِّكر والموعظة؛ لتكون من الصادِقين المهتدِين، الفائزين بالنعيم.

وتجنُّبِ الكذب؛ فهو شر وبلاء، «وما كان خُلُقٌ أبغضَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مِن الكذب، ولقدْ كان الرجل يحدِّث عندَ النبي صلى الله عليه وسلم بالكذبة فما يزال في نفْسه، حتى يعلمَ أنَّه قد أحْدث منها توبة»1، وأعظم الكذب وأفْرى الفِرى الكذبُ على الله والقولُ عليه بلا عِلم، وهو شر غوائل العلم .

ويجب على الإمامِ – مع هذه الصفات التي ذَكَرْناها آنفًا – أن يكون أمينًا في نقْل الكلمة؛ يتبيَّن ويَتثبَّت من صحَّة الأخبار ولا يتعجل في الأخْذ بالشائعات، ولا يعتمد إلَّا قولًا موثوقًا، وقد أمرنا الله تعالى بذلك في قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} [الحجرات: 6] .

وعلى الإمام والخطيب أن يبالغَا في السِّتر ويحذرَا الشائعات؛ فمَن ستر مسلمًا سترَه الله في الدُّنيا والآخِرة، ومَن يتتبَّع عورات المسلمين يتتبَّع الله عورتَه حتى يفضحَه ولو في جوفِ بيتِه؛ قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ}[النور: 19]

«ومسؤوليةُ إمام المسجد عظيمة جدًّا؛ حتى ينتفعَ الناس بوعْظِه، ويستفيدوا مِن لَحْظِه، ولا يصحُّ له أن يفرط في المسؤولية المنوطة به، وهي مسؤوليةٌ مشتركة يخشَى المرء من تَحمُّل تبعاتها، وشعور المرء بتبعته في كلِّ أمر يوكل إليه، وإدراكه الجازم بأنَّه مسؤولٌ عنه أمام ربه – عزَّ وجلَّ – حينما يفرِّط في القيام به، ويتساهَل في أدائه على الوجهِ الذي يستطيعه، والمسؤوليةُ تكليفٌ بما يُطيق؛ بحَيث لا يقعد الإمامُ عن سببٍ مِن أسباب القيام بهذا العمَل على الوجه المطلوب، وهو في طاقته ووُسْعه إلَّا ويبذله؛ لأنَّه متمِّم لعمله، وسبب موصِّل إلى إتقانه، وما لا يتمُّ الواجب إلا به، فهو واجبٌ، وإذا عَلِم أنَّه

[1] – رواه الترمذي في سننه عن عائشة وقال حديث حسن ، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة 2052

قُدوة، والناس تنظُر إليه وإلى ما يفعل، استحسَن أعمالَه، وترَك خلافَ الأَوْلَى في فِعله، ولو كان مباحًا، كان هذا سببًا لكسب قلوبِ الناس، وجعَلَهم يُحبون التردُّدَ على المساجد، ويُحافظون على الجماعة، وهو مطلبٌ عظيم لا يَخفى على أحد ثَمراته الطيبة، وضدّ ذلك مفسدة يَجب دفعُها، وقطعُ أسبابها، وهذه مسؤوليةُ الإمام الذي أخلَص نيتَه، ومِن مَحبَّة الناس لإمامهم وعِظم مكانته عندهم مراعاةُ مَشاعرِه، وتفقُّد أحواله»[1].

وأمرٌ خطير أحبُّ أن ألفت أنظار إخواني إليه: وهو أنَّ بعض الناس إذا شاهدوا إمامَ مسجدهم القُدوة والمثَل الأعلى وقَع في معصية، أو زلَّت قدمُه في مستنقع الأخلاق المرذولة، تراه يهجُر المسجد، وينفِرُ عنه، ولربَّما أذاع معصيةَ إمام المسجد، حتى إذا عمِل نفس معصية الإمام تعلَّل لنفسه بقوله : لو كانت حرامًا ما وقع فيها الإمام!

ولا بدَّ للداعية أن يتذكَّر أنَّ المدعوين يُريدون أنْ يرَوا فيك المعنى السامي الذي تتكلَّم فيه، هم لا يُريدون مَن يقول لهم: خُذوا قولي واترُكوا فِعلي، بل يُريدون رُؤية أفعال تطابق أقوالًا.

لا تستغرب عندما يُطلق ابنُ الحاج – رحمه الله – على الخطورة التي تترتب على ذلك: «السُّم القاتل»؛ يقول: « لأنَّ الغالب على النفوس الاقتداءُ في شهواتها وملذوذاتها وعاداتها أكثرَ ممَّا تَقتدي به في التعبُّدِ الذي ليس لها فيه حظٌّ، فإذا رأتْ ذلك من عالِم وإن أيقنتْ أنه محرَّم أو مكروه أو بِدعة، تعذر نفسها في ارْتكابها لذلِك إن سلمتْ مِن سُمِّ الجهل، تقول: لعلَّ عند هذا العالم العلم بجواز ذلك [عِلمًا] لم نطلع عليه، أو رخَّص فيه العلماءُ، إلى غيرِ ذلك مما يقَع لهم، وهو كثيرٌ مشاهدٌ، فإذا رأت مَن هو أفضل منها في العِلم والخير يرتكب شيئًا مِن ذلك، فأقل ما فيه مِن القبح الاستصغار والتهاون بمعاصي الله تعالى، **وهو السمُّ القاتل**.

وقدْ قالوا: ارتكابُ الكبائر أهونُ مِن الاستصغار بالصغائر؛ لأنَّ مرتكب الكبيرة يُرجَى له أن يرجع إلى الله ويتوب، ومَن تهاون بالصغائر قلَّ أن يرجع عن ذلك؛ لأنها عنده ليستْ بشيء، وقد قالوا لا كبيرةَ مع الاستغفار ولا

[1] "مسؤولية إمام المسجد"، تأليف علي بن حسن بن ناصر عسيري، ص25.

صغيرة مع الإصرار، وهذا بيِّن؛ لأن الصغائر إذا اجتمعتْ صارتْ كبائر، فيكون هذا العالم الذي يَتعاطَى شيئًا مِن المكروهات أو البِدع سببًا لعطب مَن يراه ممَّن هو أقل منه رُتبةً في الدِّين؛ لاقتدائه به واستسهاله بشيءٍ من ذلك»[1].

المبحث الخامس: كيف يكون الإنسان قُدوة؟

سؤال يطرحُه كلُّ جادٍّ وجادَّة؛ لأنَّه يعرف أنَّ كونَ الإنسان قُدوةً هو الرفعةُ في الدنيا والآخرة؛ ولذا فإنَّني أشير إلى بعضِ الخطوط العامَّة، والخطوات العملية:

* صحِّح النية في هذه الرغبة.

* ألْزِمْ نفْسك دعاءَ الله – عزَّ وجلَّ – أن يَجعلَك إمامًا للمتقين.

* خذْ مِن العبادة بقدْر ما تستطيع، وداومْ عليها، واحرِص على الشمولية فيها.

* اقرأ في سِير العلماء المؤثِّرين والمصلِحين، والقادة الفاتحين في مجتمعاتهم.

* تحوَّل عن الكَسالَى، وصاحِبْ أهلَ الهِمم العالية الذين تُذكِّر رؤيتهم بالله، وتشحَذ همتك .

* داومْ على الأعمال التي تؤدِّيها، ولا تدعِ التسويف يقتُل طموحاتِك، ويُقلِّل من إنتاجك.

* احضرْ بعض الدورات التي تعلِّم تنظيمَ الوقت وإدارة النفس.

* اجعلْ لك صاحبًا يُذكِّرك بعيبك، فالمؤمِن مرآة أخيه.

* اجعلْ طموحَك أن تسبقَ الناس كلِّهم إلى الخير، وأبواب المعروف.

* حمِّل نفْسَك مسؤولياتٍ مُعينةً، وراقِب أداءَك فيها.

* لا تحقر نفسك، ولا تغتر في الوقت ذاته، وبعد؛ فنحن هذا الوقتَ في أمَسِّ الحاجة إلى قدوات في العبادة والدعوة والأخلاق، وإلى أمس الحاجة إلى البحث في أسباب قلة النماذج التي يُقتدى بها، وإذا كان التوجيه الرباني للرسول – صلَّى الله عليه وسلَّم – بأن يقتدي بهدي الأنبياء، فنحن نتأسى به

[1] – المدخل لابن الحاج 112/1

– صلَّى الله عليه وسلَّم – ونسير على خطاه، مع استحضارِ أنَّ وجودَ القُدوة في هذا الوقت عنوانٌ على شموخِ الإيمان، وعزَّة الإسلام، فيا لَها من قلوبٍ مؤمِنة تلك التي اختارتْ طريقَ الجنة، وصبرت وجاهدت!»[1].

[1] "القدوة وأثرها في التربية"، د. رقية بنت محمد المحارب، بتصرف من مقال منشور على موقع "لها أون لاين" .

الخاتمة

إنَّ المسؤولية عظيمةٌ وكبيرة على العلماء والدعاة والمصلحين ، وذويهم وأهل بيوتهم بشكلٍ خاص، إذ لا بدَّ أن يؤهلوا تأهيلًا خاصًّا لإكمال وظيفتهم الدعوية في المجتمع ، عن طريق الاهتمام بتحقيق القُدوة والأنموذج الواقعي للصَّلاح والاستقامة، وهذا يُلقي عليهم مسؤوليةً عامَّة تُجاه الناس، فضلًا عن مسؤوليتهم الخاصَّة تُجاه أنفسهم فيما بينهم وبين الله تعالى.

وعلى ذلك فإنَّ على كلِّ مسلم ومسلمة عرَف طريق الحق وسلَكه، أن يجاهد نفسه؛ ليقتربَ ما استطاع من ذلك الأنموذج الإنساني الراقي، نعني به القُدوة، وإذا نظَرْنا في تاريخ العلماء والصالحين وجدْنا أدبياتٍ كثيرةً تحثُّ المسلم على التميُّز والحِرْص على العمل بالعِلم ؛ إذ يقول سفيان بن عيينة: «إذا كان نهارَي نهارَ سفيه، وليلي ليلَ جاهل، فما أصنع بالعِلم الذي كتبت؟!».

وقال الحسن: «لا تكُن ممَّن يجمع عِلم العلماء ، وطرائف الحكماء، ويَجري في العمل مجرَى السفهاء»، وقال أيضًا: «كان الرجلُ يطلُب العلم، فلا يَلْبَثُ أنْ يُرَى ذلك في تخشُّعه وهَديه ولِسانه وبصرِه ويده».

فالرأسُ في الخير لا بدَّ أن يسيرَ في طريق المجاهدة ومنابذة الشهوات، ولا يَرتضي لنفسه أن يكون من الخُلوف الذين وصفَهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنَّهم ((يَقولُونَ ما لا يَفْعلونَ ، ويَفْعلونَ ما لا يُؤمَرونُ))، وإنَّما يحرِص على أن يكون من أتباع المصطفى صلى الله عليه وسلم الذين وُصِفوا بأنهم: ((يَأخُذونَ بسُنَّتِه ويَقْتَدونَ بأَمْرِه))، وكما يقولُ مالك بن دِينار: «إنَّ العالِم إذا لم يعملْ بعِلمه، زلَّتْ موعظتُه عنِ القلوبِ كما يزلُّ القطر عن الصخرةِ الصمَّاء».

ولا يحقرنَّ ناشئٌ نفسَه؛ فلعلَّ مقوماتِ القدوةِ فيه، فليغذِّها بالعلم والإيمان، ومَن فاته شرفُ ذلك في نفسه فلا يفوتُه في ولدِه، وليربِّهم على معالي الأمور، وليغرسْ في قلوبهم الإيمانَ والصبرَ واليقين، وما أحسنَ الدعاءَ القرآنيَّ المباركَ {رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا } [الفرقان: 74]، ومَن مِن المسلمين لا يَرجو ذلك لنفْسه وولده؟! إذنْ فليدعُ به،

وليأخذْ بأسبابه، وكانَ ابنُ عُمرَ رضي الله عنهما يدعو قائلًا: اللهمَّ اجعلني مِن أئمَّة المتَّقين.

إنَّ الأمَّة المسلمةَ في هذا العصرِ هي المؤهَّلة لقيادةِ البشرية لما يُصلحها ويَنفعها، وكفِّها عما يُفسِدها ويضرُّها، بعد أنْ فشِلت كلُّ الفلسفات والنظريَّات البشريَّة الشرقيَّة مِنها والغربيَّة، وأضْحَى العالم كلُّه في أخطار لا يَدري ما خَلاصُه منها.

إنَّها أمَّة رُشد وخير، مهديَّة بالوحي، مسدَّدة بالإيمان، وهي أقدرُ الأمم على إسعادِ البشَر؛ لما تحوزُه مِن عِلم يقيني بالله تعالى، ولما تَملِكُه من وحي ربَّاني لا يأتيه الباطلُ مِن بين يديه ولا مِن خلْفه، ولقد وقَع في خطأٍ فاحش مَن قلَبوا ظهرَ المِجنِّ لأمَّتهم، وتنكَّروا لدينهم، ولم يعبؤوا بكتابِ ربِّهم، فيمَّموا وجوهَهم شطرَ الغربِ الليبرالي الرأسمالي، يستمدُّون منه فلسفاتِه ونظرياتِه، ويَستجلِبون أخلاقَه الرديئة في إفسادِ المرأةِ والأسرة، وتغريبِ البيئة المسلِمة، سافلين بأنفسِهم عن إمامةِ البشَرِ إلى تَبعيةِ مَن لا خلاقَ لهم..

يَفعلون ذلك في وقتٍ تندحرُ فيه قيمُ الغرب، وتتكسرُ على صخرةِ الإسلام الصُّلبة، حتى تنازلَ الغربُ عن أعْلى قِيَمِه لمكافحةِ المد الإسلامي الذي يجتاح أرضَه، أولئك قوم يخسَرون بانحيازِهم للقِيَم الخاسرة في الوقتِ الضائع، وما ذاك إلَّا خِذلانٌ لهم، وانحطاطٌ في هِممهم، وإلَّا فمَن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، ولا سيَّما أنَّ الذي هو خيرٌ يعلو ويرتفع ويقْوَى، والذي هو أدنَى يخسر ويندحر ويتلاشى، ولكن هذه سُنَّة الله تعالى في الظالمين، لا يُوفَّقون لما فيه عزُّهم وبقاؤُهم وسيادتُهم، وسُنَّة الله تعالى لا تتغير؛ {قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [البقرة:124]».

إنَّ الالتزامَ بالمبادئ والقِيَم، والمُثل والأخلاق - وما أجملَها حينما تكونُ في شخصِ رجلٍ - له أكبرُ أثر في توثيق الصِّلة بالناس والمحبة لهم، وهذا يتأكَّد في حق القُدوة؛ ولذا فقدْ كانت سنةُ الأنبياءِ التأكيدَ على تَحقيقِ هذا المبدأ؛ قال الله - تعالى - على لسان شعيب - عليه السَّلام -: { وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ} [هود: 88].

كان عليُّ بن الحُسين يجلس إلى زَيدِ بنِ أسلمَ، فكُلِّمَ في ذلك فقال: «إنَّما يجلس الرجلُ إلى مَن ينفعه في دِينه »، هكذا مَن أحبَّ أن يكونَ الناس مُقتدين به، متأثِّرين بقوله ووعظه، فليفعلْ فِعلَ عليِّ بن الحسين رحمه الله تعالى ؛ يَلْزم مجالسةَ مَن رؤيتهم تذكِّر بالله .

ولقدْ كان السلفُ يهتمُّون بتتبُّع أحوال الأئمة؛ ويرمُقون حركاتِهم حتى يَستفيدوا مِن عِلمهم وأحوالهم، فالقُدوة الحيَّة التي يراها الناسُ لها أثرٌ كبيرٌ في بناء النُّفوس، وتهذيب الأخلاق، وقدْ كان أصحابُ عبدالله بن عمر يَرْحلون إليه، فينظرونَ إلى سمْته وهديه ودَلِّه، فيتشبهون به.

ولهذا كانتْ رُؤية بعض أئمة السلف تُذكِّر بالله – تعالى – فها هو أبو إسحاقَ السَّبيعي يقول عن التابعيِّ الجليل عمرِو بن ميمون: «كان إذا دخَل المسجدَ فرُئي ذُكِر الله».

فهذه صفحاتٌ مضيئةٌ مشرِقة وضعتُها بين أيديكم، نسأل الله – سبحانه وتعالى – أن ينفع بها، وأنْ يرزقنا حُسنَ التأسِّي والاقتداء، وأن يَمُنَّ علينا بصُحبة مَن تُذكّرنا رؤيتهم بالله، وأنْ يكفِيَنا شَرَّ كل ذي شر بِمَنِّه وكرمه، وأنْ يجعل أعمالنا موافقةً لأقوالنا إنَّه سميع مجيب.

اللهمَّ يا محيي القلوبِ بالإيمان ، اكفنا زَللَ القدم والقلم واللِّسان، يا غافر الذنب، ويا قابلَ التوب ، نستغفرك مِن كلِّ تصريحٍ أو تلميحٍ بنقصان ناقصٍ كنَّا متَّصفين به، نستغفرك مِن كل وعدٍ وعَدْناه فقصَّرنا في الوفاء به.

المراجع والمصادر

1- فتح الباري شرح صحيح البخاري.

2- صحيح مسلم شرح النووي.

3- صحيح ابن حبان.

4- سنن الدارمي.

5- غريب الحديث، للخطابي.

6- سير أعلام النبلاء، للذهبي.

7- طبقات الشافعية، للسبكي.

8- أخبار أبي حنيفة، للصميري.

9- تفسير ابن كثير.

10- تفسير القرطبي.

11- القُدوة مبادئ وأصول، للشيخ صالح بن حميد.

12- القُدوة وأثرها في بناء الجيل، إعداد: علي بن نايف الشحود.

13- مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة، تأليف: عدنان باحارث.

14- أصول التربية الإسلامية، للنحلاوي.

15- مسؤولية إمام المسجد، تأليف: علي بن حسن بن ناصر عسيري.

16- إمام المسجد مقوماته الخلقية والعلمية، تأليف: سعود بن محمد البشر.

17- نصائح للمعلِّمين، للشيخ محمد المنجد.

18- المسؤولية، للدكتور محمد أمين المصري.

19- دستور الأخلاق في القرآن، للدكتور محمد عبدالله دراز.

20- موسوعة نَضْرة النعيم، بإشراف: الشيخ صالح بن حميد.

21- مع المعلِّمين، للشيخ محمد إبراهيم الحمد.